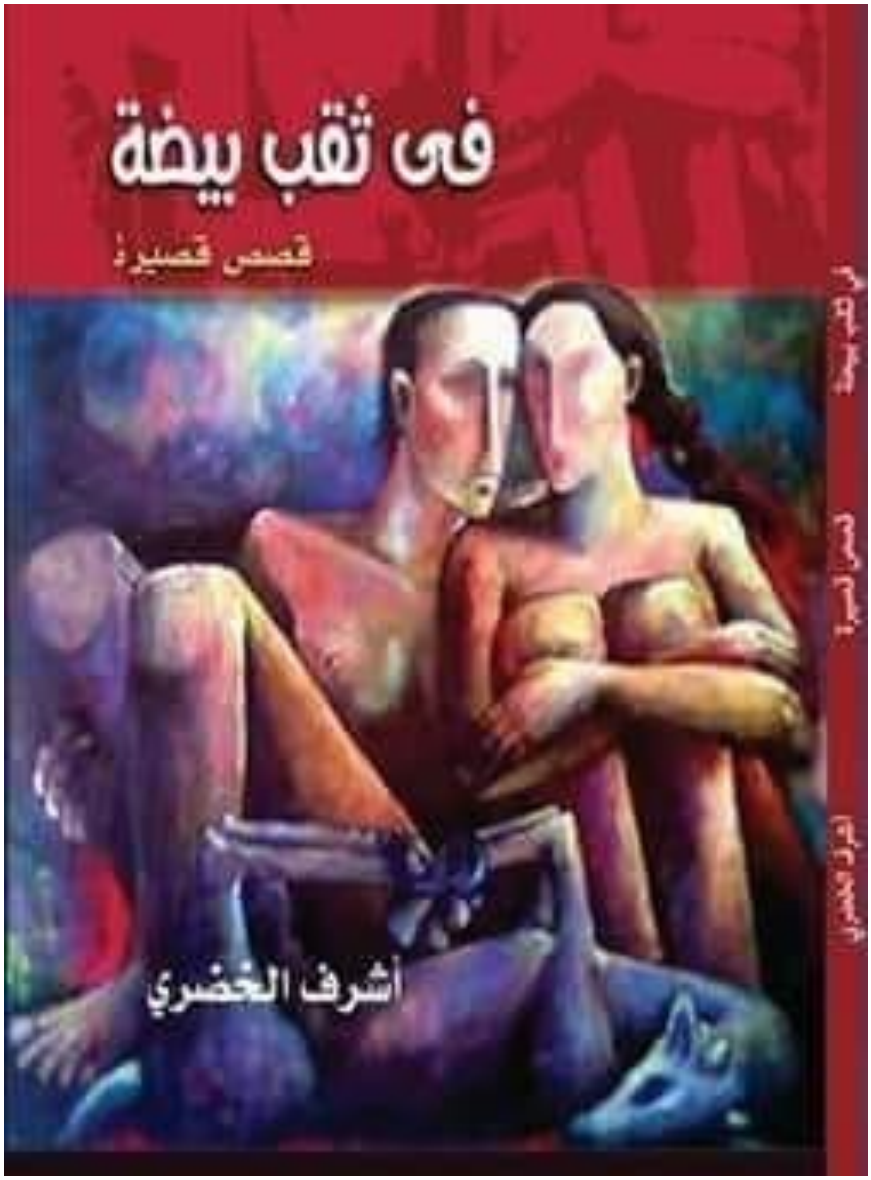
فى ثقب بيضة
قصص قصيرة
أشرف الخضري

في ثقبِ بَيضة

قصص قصيرة

أشرف الخضري

لوحة الغلاف للفنانة سوزان ياسين .

الناشر دار الإسلام للطباعة والنشر ٢٠١٨

الإهداء

إلى روح أمي وأبي .

إلى النور والمعرفة والإنسان .

إلى الكلمة النابضة بالحياة والجمال والخيال والحقيقة والضرورة .

الأثر

لا شيءَ في هذا الليلِ إلا نقيقَ الضفادعِ والصريرْ، وقفتُ أمامَ الشباكِ الأرضي وناديتُه باسمه: يا راجح . . راجح ..

فتحَ ولمعتْ عيناهُ الواسعتانِ مِنْ وراءِ حديدِ الشباكِ وقال: من أنت؟

قلتُ: غانم المعداوي صديقُكَ القديم.

أغلقَ الشباكَ وفتحَ بابَ الشارعِ وأدخلني .

كانَ الفحمُ متوهجاً في المبخرةِ الفخارِ، ولمبةُ الجاز على الحائط، جلس على أريكةٍ عليها مرتبةٌ قذرةٌ، وأجلسني أمامَهُ وبيننا طرابيزة عليها صينيةُ ألومنيومْ كبيرةٌ، وشمعدانٌ بثلاث شمعاتٍ مُضاءةٍ، وبخورٌ وبرطماناتٌ وكتابٌ، قبضَ حفنةَ بخورٍ وأسقطها فوق الجمر فارتفع الدخانُ العطرُ وهو ينفخُ فيه بأنفاسٍ طويلة .

قلت له : مختار مربوط ؟

قال: لم أرك منذ سنين ، ستعطيني جنيهين !

ضربتُ كفاً بكفٍ ثم قلتُ باستياء: جنيهانْ . هذا مبلغٌ كبير، نحن صديقان قديمان يا راجح .

قال: سأعطيك كوبَ ماءٍ مملوءً وعليك أنْ تسقيَهُ كلَّهُ لمختار إذا استطعتْ الوصولَ به سالماً إلى البيت!

قلتُ مُستغرباً : ومنْ سيمنعني ؟

نفخَ في الجمرِ وقال : الخُدّام!

ضحكتُ وقلت له: تخاريف.

قاطعني لماذا أتيتْ إليَّ إذن ؟

قلت: تعبنا ولم يعد أمامنا إلا أنت.

وقف غاضباً واتجه إلى غرفةٍ تصدرُ منها رائحةٌ كريهةٌ مألوفة، دفع البابَ فتدافعت الدجاجاتُ أمامَهُ وصرخت ، مكثَ دقيقةً وأحضر شيئاً وأغلق البابَ وجلس حيثُ كان، رفعها أمام عينيَّ وقال: ما هذه ؟

قلت : بيضة .

أمسك ملعقةً وثقبَ بيدها البيضةَ في النقطةِ المدببةِ برفقٍ وبراعةٍ وفتحَ ثقباً دائرياً صغيرا.

وقال لي : انظر.

نظرتُ في الثقبِ وقلتُ: صفارٌ وبياضٌ .

قال: انظر جيدا قلت: صفار وبياض .

وضع البيضةَ في فنجانٍ مهشمِ الأذنِ، ورفعَ جلبابه لوسَطهِ ، تعرى وانكشف.

قلت له: ماذا تفعلُ يا ابنَ الشيطانِ ؟

لم يعرني أي اهتمامٍ وبجُرأةٍ ووقاحةٍ بدأ طقوسَ العادة . . . بصقَ في يدِهِ مراتٍ، عندما اقتربَ الماءُ الدافقُ من مُلاقاةِ الهواءِ شهقَ وتأوّهَ، أمسكَ الفنجانَ وأنزلَ قطرةَ ماءِ حياةٍ تنزُّ ببطءٍ في ثقبِ البيضة، أرجع ظهره وأرخى جلبابَهُ وقرأ كلماتٍ غيرَ مفهومةٍ، اقشعر لها جسدي ، مد يده بالبيضة وقال: انظر الآن .

ترددتُ لكنني تشجعتُ و نظرتُ، شهقتُ شهقةً عاليةً وانقلبتُ على ظهري مطروقاً على الأرضِ، سمعتُ آهتي وغابتْ الحواسُ.

أفقتُ على بصلةٍ كبيرةٍ وضعها أمام أنفي ، أبعدتُ وجهي عنها وأنا أعطسُ، صبَّ قليلاً من ماءِ الزيرِ الباردِ في كفيَّ وغسلتُ وجهي وجلستُ.

قال: ماذا رأيتَ؟

قلت: رأيتُ قطاً أسودَ !عيناهُ واسعتانِ كالدم، صرخ في وجهي وظهرتْ أنيابُه، وأذناهُ طويلتانِ كقرونِ الماعز، ومدَّ يدهُ وكاد يخدشُ عيني وانخلع قلبي فزعاً لمَّا نظر القطُ لي.

ابتسم راجحُ بغرورٍ و قال: أين الأثرُ؟

فأخرجتُ من جيبي (فانيلا) بيضاءَ فيها عَرقُ ورائحةُ مختار.

قال: هل معك مطواة؟

أعطيته قرنَ الغزال، اقتطع جزءً من الفانيلا على شكلِ صحيفة، وضع قلمه المصنوعَ من الغابِ في حبرٍ

خفيفٍ وردي وبدأ الكتابة، ولما انتهى ملأ كوبا من الألومينيوم بالماءِ وأغطسَ فيه القماشة، وترك الكتابةَ تتحللُ في الماء، وضع الكوبَ أمام شفتيهِ وتنفَّسَ فيه بكلماتٍ غيرِ مفهومةٍ، لم تلتقطْ أذناي منها غيرَ(العجلَ . . العجلَ ، الساعةَ . . الساعةَ(

أعطاني الكوبَ وقال: عليك أنْ تصلَ به سالماً، أعرفُ أنك تستطيع.

استفسرتُ عن الحبرِ الذي ذوَّبه في الكوب ؟

قال: لا تخفْ. . ماءٌ ومسكٌ وزعفرانْ، وشدَّد يجبُ أنْ يلتهبَ الفأسُ حتى الاحمرارِ و تكونَ الكتابةُ حولَ السُّرة .

العتمةُ لم تكن مُطبقةً، كان القمرُ في السابع، أنتقلُ من جسرٍ إلى جسر، شعرتُ بحرارةٍ تسري في جسدي وعرقٍ غزير، كنتُ أضعُ يداً تحتَ الكوبِ ويداً فوق، رغمَ الحرصِ كان الماءُ يندلقُ وكأنَّ أيادي خفيةً تحاولُ انتزاعَهُ مني .

لم أكنْ أحفظُ إلا الفاتحةَ أقرأُهَا بصعوبةٍ بالغة، أنتقلُ من غيط إلى غيط وأسرعُ الخطى للوصولِ بالكوبِ ممتلأ. وأحدثُّ نفسي:

ابنُ الشيطانِ أخذ جنيهين، مبلغٌ يكفي البيتَ شهراً، لعنةُ اللهِ عليه، التوتْ قدمي فجأةً وأوشكتُ أنْ أتهاوى، ألقيتُ بظهري إلى نخلةٍ واستندتُ عليها واستعدتُ توازني والكوبُ بين يديَّ، مكثتُ للحظاتٍ حتى هدأتْ أنفاسي وأكملتُ السيرَ وأنا مندهشٌ لم أتعثرْ في شيء، كنتُ أفكرُ منْ الذي سيكتبُ الآيةَ حولَ سرةِ مختار؟ تسعةُ رجال! لا نعرفُ الكتابةَ.. مأساة.

عبرتُ المصرفَ على فلقِ النخلِ، وأنا في المنتصفِ رأيتُ على الضِفةِ المقابلةِ قطاً أسودَ كالليلِ، عيناهُ تلمعان كقمرينِ مشتعين في المحاجر، الكوبُ الألومنيومُ بين

كفيَّ، قدماي متسمرتانِ على فلقِ النخل، وهذا القطُ يقفُ حائلاً بيني وبين بابِ البيت، كلما جاءتْ عيناه في عينيَّ يقشعرُ بدني وأرتجفُ، أردتُ أن أتقدمَ وأرفسَهُ بقدمي لكنّي تسمرتُ، نظرتُ إلى نصفِ القمرِ في صفحةِ الماءِ وإلى القطِ الذي حولتني عيناه إلى حجرٍ حي، ودونَ أيِ شعورٍ بالخزي صرختُ كالحريم، لم أكن خائفا إلاّ على الكوب، خرج الجميعُ، رأوني متسمرا على فلقِ النخلِ في النورِ الخافت.

أسرعوا نحوي، قلتُ لماهر: ..القطُ.. أبعدْ القطَ، نظروا جميعاً حولهم وقالوا لا تُوجد قططٌ!

قلت: ساعدني لأعبرَ.

عندما لمسني تحررتْ قدماي، ونحن نتجه إلى بيتنا التفتُ خلفي كان القطُ جالساً لم يتزحزحْ من مكانه خطوةً واحدةً.

دخلنا بسلام، ودخل الجيرانُ بيوتهم ينهشُهُم الفضولُ. عندما أصبحنا في صالةِ البيتِ سمعتُ صوتاً في داخلي يُحدثني (الكوبُ فارغٌ) كان الجميعُ يحاولونَ الاطمئنانَ عليَّ

اتجهتُ صوبَ الحمامِ وأغلقتُ البابَ والشباكَ ولسانُ لمبةِ الجازِ المشتعلُ لا يهتزُ، قلتُ مستحيل، هذا لا يُمكن، كنتُ أُطبقُ بكفي على الكوبِ مكفياً على فمهِ وليس فيهِ قطرةُ ماء !

جلستُ على كرسيِّ الحمامِ الخشبي مذهولاً ويائساً .

لا أصدقُ ما حدثَ ولا أعرفُ ماذا أفعلُ، لمعَ خاطرٌ في ذهني قمتُ وملأتُ الكوبَ ماءً من الحنفية، وخرجتُ وأنا أقرأُ الفاتحةَ

في سري عدةَ مراتٍ وأنا أقلدُ ابنَ الشيطانِ (الساعةَ . . الساعة) !

ناديتُ مختارَ وقلت له: اشرب بسم الله.

رفعَ الكوبَ على فمِه قلتُ: بالشفاءِ إنْ شاءَ اللهُ، وصرختُ أوقدوا الفرنَ، أريدُ ناراً شديدة.

جلستُ أستريحُ ثم أخذتُ فأساً ووضعتُه في النارِ، سألتُ الجميعَ، أريدُ أحداً يستطيعُ الكتابة.

قال ماهر: أسماءُ ابنتي تدرُسُ في كتّابِ الشيخِ محُسنْ .وتكتبُ الفاتحةَ وسوراً كثيرة، أيقظتَها أمُها بصعوبةٍ وحدثتْ مُشادةٌ بين زوجةِ أخي وبينَه لكنه أقنعها أنَّ أسماءَ لن تفعلَ شيئاً خطيراً فاستسلمتْ لإصرارِ زوجِها وتركتْ البنت، .

قبّلتُ أسماءَ وضممتُها في صدري، انحنيتُ عليها وقلت :هل يُمكنكِ قراءةَ الكلامِ في هذهِ الورقة ؟

أمسَكتَهْا وجلستْ واعتدلتْ كأنها ستقومُ بتسميعِ سورةٍ أمامَ الشيخِ، قالت: أعوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيم، بسم اللهِ الرحمنِ الرحيم،(مَا جِئتُمْ بِهِ السِّحرُ إنَّ اللهَ سَيُبطِلُهُ) قلتُ لها: أريدُكِ أنْ تكتبي لي ما في هذهِ الورقة، سألتْ أكتُبُها أين ؟ قلتُ لمختار: نم واكشفْ بطنك ؟ قلتُ لها: هنا وصنعتُ دائرةً حولَ السرة، وضعتُ العسلَ الأسودَ أمامَها وقلتُ: القلمُ إصبُعُكِ والحبرُ العسل. جلستْ أسماءُ في خجلها الشديدِ وغمستْ إصْبَعَها في العسل وكلما حاولتْ لمسَ بطنِ عمِها ارتعشتْ وأبعدتْ يدها، نظرتْ لأبيها وقالت:(مش قادرة. . أنا خايفة) ، قلتُ لا بأس: وطلبت منها أنْ تقفَ عندَ رأسِ أخي وتتلوُ الآيةَ سبعَ مرات، أخذتْ تقرأُ حتى أتمتْ القراءة، قبلتُها واحتضنتُها لذكائها وبراعتها وأعطيتُها (بريزة) كاملة، وأنا أتنهدُ: العلمُ نور.

أخرجتُ الفأسَ منَ النارِ وهو جمرةٌ حمراءُ وأمرتُ مختارَ أنْ يتبولَ عليه. عندما دوتْ الزغاريدُ والفرحةُ تمتْ ، كنتُ معمُوراً بالأوجاعِ والضحكات، وأنا أقولُ لنفسي: من الحنفية! دخلتُ سريري لأنامَ بعدَ ليلةٍ لن أنساها وأنا أضحكُ ، من َالحنفية، جُنيهان!

وعندما أغمضتُ عينيَّ واسترخيتُ لِمعَ في ذهني خاطرٌ لحوحٌ وسؤالٌ عجيبٌ من الذي ربطَ مختار ؟ !

ابنة الحداد

جلس متعبا في حالة قرف شديد، طلبت له شاي وشيشة.

بدا مرتاحا للقرار الذى اتخذه نهائيا بالهروب من البيت والعيال ووجه زوجته الذى يجلب الفقر، فلم يرها أبدا طيلة عمره إلا قردة !

حاولت دفعه للفضفضة ونفخ همومه مع دخان اللبان الذكر، لكنه بدأ في مهاجمتي.

-ألم تتزوج بعد ؟

- لم . . . بعد ! !

- من يخدمك ويرعاك إذن ؟

ناديت القهوجي لأن النار انطفأت، مصفاة ناريا معلم .

لم يعد مهتما بمظهره الخارجي وأناقته القديمة، تحطمت كل قواه لمجرد خروجه على المعاش، أصبح يتعامل مع الحياة بعداء وكراهية، يشعر بظلم كبير أنه تم الاستغناء عنه، وأن دوره في الحياة انتهى عند حفلة خروجه، رغم الزينة والتورتة والصور التذكارية في المكتب، كان يودعه بنظرات متحسرة ودموع.

- ولع يا باشا .

وضع صبي المقهى الفحم المتوهج وألقى الفحم المطفأ على الأرض، أخذ يكح دون أن يتخلى عن

ترك مبسم الشيشة يبتعد عن شفتيه كثيرا، قال:(فاحمة والعة، وروحها طالعة !)

مازحته قائلا: لابد أن نزوجك عروسا صغيرة تجدد شبابك .

أرجع رأسه للخلف وابتسم، ونطق بألفة وونس (أروى) كان ينتظرها في الصباح، يمشي وراءها حتى مدرستها، يسمعها كلمات الغزل العبيطة، يا عسل، يا أبيض، يا ملبن .

دون أن يخطر بباله أن يمسك يدها، أو يحاول تقبيلها في بئر السلم . !

لم يشتر لها وردة أبدا، ولا خاتم فضة، فقط كيس لب، وباكو لبان، بكى كثيرا يوم قراءة فاتحتها على ابن عمها، تاجر الفول والعدس،

سألته هل ما زلت تحبها ؟

أجاب طبعا وسأظل أحبها لآخر نفس .

قلت: هل تعرف ما شكلها الآن ؟

قال: لا . من المؤكد أنها تغيرت وصارت أجمل !

قلت له: لقد صارت قردة !

زوجها تزوج عليها بنتا فلاحة تجمع الطماطم والدودة في الأرض ، أروى سممتهما بصينية قرع عسل ومكرونة بلبن ، الله يرحمه

كان شرها، وأروى الجميلة لم تحتمل قهر السجن وماتت .

سقط مبسم الشيشة على فخذه، وغلبته رعشة واعتدل متوترا وسألني بفزع ووجه هربت منه الدماء أروى ماتت !

مرت لحظات ذهول صامتة وسألني هل كنت تعرفها ؟

أجبته طبعا لا . ولكني أردت رؤية ردة فعلك أمام سيرة حبيبة القلب .

انتفضت قدمه اليمنى فأوقع الشيشة على الأرض، وتفرق الفحم المتوهج، وطرطش في بقايا الماء المرشوش على الأسفلت وانطفأ، ضربني في صدري بأبوة وابتسم وعادت الروح .

جاء القهوجي بشيشة جديدة، وقهوة سادة ونصف كوب ماء ساخن، طهر فيه مبسم الشيشة، أخذ عدة أنفاس ضعيفة، كان الدخان يخرج من فمه خفيفا لا يكاد يظهر، وبدأ يحكي قصة كفاحه، وانهائه للخدمة العسكرية، ومرتبه الضئيل كمدرس تربية فنية، وعمله بعد الظهر في ورشة حدادة لصناعة (قمط النجارين) ولقائه الأول ب وفاء ابنة الحداد، وكيف قام بادخار ثمن الشبكة(الدبلة والمحبس) وخلو الشقة الإيجار والعفش البسيط، بدون ثلاجة، أو بوتاجاز، أو غسالة.

حكى عن لذة الأكل على (الكانون) المشترك فوق السطح، ورائحة الشاي على ناره، والفرن الطابون

وأرغفة البيض، والبطاطس المشوية، والعيش البيتي، وتجمع الحريم في (الخبيز)

ووابور الجاز في ليالي طوبة الباردة، والدفء الغامر في الحمام المترفي متر، وكيف كان يقشعر بدنه عندما ينظر في وجه وفاء القبيح ودلعها الماسخ، وفتنتها به، وأفعالها الحميمة المتهورة معه، وهي تصب الماء على رأسه من الكوب الألومنيوم، وهو مستسلم فوق كرسي الحمام الخشبي الواطئ، وليفة الاستحمام بيدها اليمنى العفية، تحك القشف وهباب فرن الحدادة .

الجدران الإسمنت للحمام لم يمسها نقاش أبدا، تتعرق كالبشر وتسخن من صهد الوابور !

تعشق تقبيل كل جزء فيه، حتى أصابع قدميه، تدلكه بمساج قاس، وهي تدعك ظهره كأنها تحمم عجل جاموس، تشعر بلذة مجنونة عندما تحضنه من الخلف، ولا تتنازل عن هذه اللحظة أبدا، تخبره انها تحبه بجنون لا حدود له، يشعر بالخيبة عندما تقع شفتاها على منتصف عامودة الفقري، وخشونة يديها المعاشرتين للحديد والنار، فرح لسماعه خبر حبلها الأول، وتوحمت على خوخ، سيكون أبا بعد شهور، اعتاد على الفرحة حتى الغثيان، فهذه الأرنبة أنجبت عشرة أطفال، ولولا قراره الحكيم بالنوم في الصالة، طيلة السنوات الفائتة، لأنجبت خمسين طفلا !

ظل يحكي عن كل لحظات حياته الصعبة، وشراء قطعة الأرض الخمسين مترا، وكيف بناها بالدم والعرق والشقاء، والجمعية بعد الجمعية، والسلفة بعد السلفة، والأيام السوداء شديدة التقشف، وكيف تتغدى أسرة كاملة فول وطعمية يومين كل أسبوع، والجمعة شبار بط، ورائحة البط المحمر في الزيت في منور الجيران تخلع القلب. والفاكهاني السريح على عربة بحمار، يلتف حوله أهل الحارة لشراء الرمان، والعنب، ولا يجرؤ هو على التوقف للفرجة، سقف طموحاته كان بطيخة حمراء مرملة. !

سنوات هائلة من الحرمان والجوع، والثياب المشوهة بالرقاع، عاما بعد عام. تنهد تنهيدة محزونة وسكت، أمسك شفته

السفلى كأنه سيصفر للحمام في غية على سطح دمياطي ، قال: وفاء باعت ذهبها لأجلنا مرة بعد مرة، ولم تشتر لنفسها جلبابا جديدا ولا صندل منذ سنوات، أذناها عاريتان بدون قرط، تمنت الذهاب لزيارة النبي ولم تتوفر نقود أبدا .

لم يعد للفحم أي حرارة، مجرد رماد متكوم.

ارتشف فنجان البن البارد في رشفتين فأنهاه. شرب كوب الماء، وقف كأنه استعاد شبابه الجامح، رفع رأسه عاليا، ونظر الى امتداد الطريق، كالأعمى الذى أبصر ! وبدأ في المشي كأنه نسيني !

ناديته أستاذ صبري، أستاذ صبري، لكنه لم يلتفت للوراء أبدا .

زينب

الذئبُ قتل كلبنا الوحيدَ الذى يحرسُ البيتَ والبهائم، استدرجه حتى عبر إليه المصرفَ الذى يروي الأرض، وقضى عليه .

أبى كان يتعمدُ المشيَ في الأماكنِ الموحشةِ حتى يلقاه، يومهَا وقفا أمامَ بعضهما البعض ، جدُّك ألقى إليه عامودَ ملبنْ، فالتصق بين أنيابهِ وانشغلَ بهِ، ألقى عليه العباءةَ وقفز عليه، حاصرهُ بداخلها بقوةٍ وطعنه بالخنجرِ طعناتٍ قويةً متتاليةً حتى سمعَ صرختهُ الأخيرة ، حمله إلى

البيت ، شقّ بطنه وأكل كبدته نيئةً وعلقّه على شجرةِ التوتِ أمامَ البيت.

في صباحِ اليومِ المشؤومِ ، الرجلُ الشائبُ أباظة، أغطستُ رأسه في ماءِ الطلمبة ، وضربتُه على رأسهِ بسطل اللبن، وجرستُه أمامَ حريمِ العزبة، لكي يتوبَ عن الاحتكاك بالبناتِ والحريم، كنتُ أشعرُ وأنا أجذِبُه من شعرهِ كأنني أمسكه من قرنيه.

جدُك لم يكنْ يأكلُ من غيري ، كنتُ ذراعَهُ اليمين، كان أجملَ رجلٍ في العزبة، شعرُه أصفرُ ولونُ عينيه أخضر، له هيبةٌ وعرضٌ وطول، كان الناسُ يُسمونه النزيه.

القمرُ ليلتها كانَ بدراً، أخذتُ العَشاءَ لجدك في الغيط مثلَ كلِّ يوم، أذهبُ إليه بالخبز الطري المخبوزِ في فرنِ البيت، والجبنةِ والبيضِ والبصلِ، أجمعُ القشدةَ يوماً بعد يومٍ وأصنعُ منها السمنَ البلديَ والعجوزة، كنتُ أحبُ أنْ أراه وهو يشربُ لأسمعَ زغردةَ الماءِ من شفةِ القُلّةِ الفخارِ وأراقبَ جريانَ الماءِ الباردِ على رقبته وصدره بعد لقمةٍ هنيئة ، وحينما يُعيدُ القُلَّةَ مكانَها على شجرةِ النبقِ أحسُ أنَّ أبي أطولُ رجلٍ في البلد .

وقود الفرن وكوانين النار، أصنعه بيدي من الأقراصِ التي أجمعُها من روثِ الجواميس ، و قضبانِ الذرةِ الشاميةِ بعد أكلها ، كنا نخزنها كالفحم .

كنتُ أغني (يا أمة القمر على الباب) وأنا أسير على حرفِ الأرض، شعرتُ بخطواتٍ تتبعني ، توقفتُ، التفتتُ فلم أر أحداً، عيدانُ الذرةِ عاليةٌ ولها هيبة، انقبض قلبي لكنَّ أبي على مرمى بصري فأحسستُ بالأمان ، أمامَ شجرةِ الجميزِ العامرةِ بالشهد، رأيتها بعيني .

- ماذا رأيتِ يا أمي ؟

- أرانب ! أرانبُ كثيرةٌ تلعبُ، قلتُ : (رزقٌ أرسله اللهُ لي)، وضعتُ الصينيةَ على الأرض، شمرتُ جلبابيَ الواسعَ وجعلتُ له حِجراً مثلَ إناء، حاولتُ الإمساكَ بأرنبٍ أو أكثر، أرانبُ بيضٌ وسودٌ تأكل، ظللتُ أقبضُ على أرنبٍ بعد الآخرِ وأضعه في حِجرِ جلبابي العميق، أمسكتُ أربعةً أو خمسةً لم

تحاولْ الهربَ مني ، كاد قلبي الصغيرُ ينفجرُ منَ الفرحة، أغلقتُ حِجرَ الجلبابِ جيّداً، قعدتُ على ركبتيَّ وحملت صُينيةَ الأكلِ بيدٍ واحدةٍ ووضعتها على رأسي ومضيتُ إلى البيت، كنتُ أمشي خفيفةً كفراشةٍ دون أيَّ شعورٍ بثقلِ الأرانبِ في حجري . عندما وصلتُ طرقتُ البابَ بعجيزتي ، سألتني جدتُك

- ماذا تحملينَ في حِجرك يا زينب ؟

قلتُ لها : أرانبُ يا أمي . . أرانب !

أمي لطمتْ خديها وصرختْ: يا مصيبتي .

ظللتُ طريحةَ الفِراشِ عدةَ أسابيع، حَلاَّقُ الصحةِ عجزَ عن مُعالجتي من الحمى الغريبةِ التي ظلتْ في

جسدي ، الشيخُ مروانُ الكفيفُ جارُنا قرأ سورَ قرآنٍ كثيرةً ، الحاجةُ مريمُ أعدَّتْ لي حجاباً وأمرتْ أمي بعملِ (تبيبتةً بعد تبيبتة) وقدمنا قرابين ، ذبحتْ أمّي ديكاً أسودَ وطلتْ وجهي وبطني بدمهِ الساخن ، أشعلتْ شموعاً ، وَضَعَتْهَا مع حلوىً وحمُّصْ ولبنٍ وعسلٍ وفولْ سوداني ووردٍ أسفلَ السرير ، مرت أيامٌ عصيبةٌ ، رأيتُ الموتَ فيها بعيني والله أنجاني .

لكنْ بعدَ ثلاثةِ أعوامٍ منْ زواجي ، وقعتْ مصيبةٌ أكبر .

- أيُّ مصيبةٍ يا أمي ؟
- رأيتُ امرأةً تمشي في صالةِ البيتِ باتجاهِ الحَمَّام .

ضوءُ لمبةِ الجازِ الوحيدةِ التي تُضيءُ شقتنا هذه وهي ما تزالُ (طوب) أحمر، لم تجعلني أشكُ أنني أنظرُ بعينيَّ إلى امرأةٍ عاريةٍ فائقةِ الجمال، شعرهُا الذهبي يُغطي ظهرها كلَّهُ ويسترُ عجيزتها تماماً .

كُنتُ أُرضعُ أخاكَ ضِياء، لم أنطقْ بحرفٍ ، تجمَّدَتْ عيناي عليها وصوتُ أنفاسي يتسارعُ ونبضاتُ قلبي تنتفضُ ورعشةٌ تهزُّ جسمي كلَّه، قالت لي بلهجةٍ واضحة: (لا تنظري لي !) كنتُ متيبّسةً كقضبانِ ذُرةٍ تحمصتْ في الشمس، كنتُ مشلولةً لا أستطيعُ تحريكَ أُصْبُعٍ أو رمش، فُوهةُ اللمبةِ الجازِ أخذتْ تفيضُ بالهبابِ كمدخنةِ فرن ، الدخانُ الأسودُ ظل يتعاظمُ حتى أظلمَ البيتُ، عندما أفقتُ لم أجدْ ضياءً

على صدري، أخذتُ أفتشُ في أركانِ البيتِ كالمجنونةِ وأنا أبكي (والنبي يا رب) ، ظللتُ أبكي وأتوسلُ، طلبتُ السماحَ، نحيبي الهادرُ هزَّ جدرانَ الشقةِ دونَ أنْ يسمعني أحدٌ، فتشتُ تحتَ السرير، بحثتُ عن أخيكَ في الحمام، فتحتُ الدولاب درفةً درفة وأخرجتُ ثيابي وثيابَ أبيك، ولم أجدْ لأخيكَ أثراً، قعدتُ على الأرضِ وأخذتُك في حجري وأنا أبكي وأملي في ربنا لم ينقطع، بعد ساعةٍ أو ساعتين ، الدخانُ تلاشى ، وذابتْ العتمة، سمعتُ صوتَ بكاءِ أخيك باهتاً وضعيفاً ، تتبعتُ الصوتَ ، وجدتُ ضياءً محشوراً بين كتفِ الدولابِ والحائط ، أخرجتُه برفقٍ، ضممتهُ في

صدري وظللتُ أُقبّلهُ وأبكي وأنا آخذُ أنفاسهُ في أنفاسي قبل أنْ أهوي إلى الأرضِ، ساجدةً لله .

الفستان البني

كنت أنظر اليها باستنكار لكنني في أعماق نفسي كنت أستمتع وبشهوة بغيضة كلمّا مرّت أمامي ، جسدها الطري يترجرج تحت فستانها البني ، أحسسته بعيني ناعما يهتز في تناغم ، وأنا أطيل النظر إلى ظهرها وهي تمضي في طريقها دون أن تعرف أنّ عيون الذئاب تتلصص على جسمها الجميل .

تعبر أمام المقهى في الصباح ذاهبة إلى عملها كمدرسة تربية دينية وتعود في الثانية بعد الظهر، عرفت اسمها ووظيفتها وعنوانها

من باب الفضول والثرثرة ، عندما سألت صديقي فكري عنها قال لي :

هذه الأرملة (الفرسة) لا أنام من كثرة التفكير بها ، وأنه يجيء كل يوم في السابعة صباحا ليراها وفي الثانية ظهرا ليستمتع بالتلصص على عجيزتها وهي ترتج تحت فستانها البني الضيق وخصرها يختنق بحزام من القماش .

قلت له:

لماذا لا تتقدم للزواج منها ما دمت مغرما بها إلى حد الأرق والنوم التعيس .

- إنها لن تقبل بي ! !

- لماذا لا تقبل ؟

-هي موظفة ومتعلمة وأنا رجل جاهل .

-المرأة في ظروف كهذه لا تبحث عن شهادة جامعية ومظهر اجتماعي كاذب ، بل تحتاج إلى الأمان والحب .

قال لي وقد التمعت عيناه وبدأ التوتر يسري في دمه وارتعشت يده وهو يرتشف من فنجان البن رشفات متتالية بصوت مستفز :

-يعني أتقدم لها يا استاذ على ضمانتك ؟

-الضامن هو الله .

عندما انصرف صاحبي ظللت أفكر في الأرملة الجميلة ، وشعرت برغبة ملحة لتأمل وجهها والنظر في عينيها مباشرة ، ولأنني خشيت أن أنسى هذه الرغبة قمت بضبط منبه

الهاتف عند الثانية ظهرا، ومع أول ارتعاشه للهاتف توجهت إلى المقهى .

اخترت مكانا يكفل لي النظر إلى وجهها من أول انعطافة الشارع، لمحت عيناي إطلالتها من بعيد، حشدت كل حواسي، رأيت ابتسامتها كأن حديقة من الورود البيضاء نبتت فجأة من الأرض وهي تنتقي حبات الطماطم من عربة فؤاد على ناصية الشارع وهو يلتصق بها ويعاونها في تعبئة الكيس دون أن ينفر جسدها عفويا بعيدا عن جسده، حملت كيس الطماطم والكرنب واتجهت حيث أنتظر، عندما أصبحت على بعد أمتار مني لاحظت أنني لاأرفع عيني عن وجهها، كان وجهها جميلا أبيض

كالحليب ومستديرا كالبدر، تورد محمرا في الخدين عندما حاصرتها نظراتي الخادشة، عيناها واسعتان كحيلتان وأنفها دقيق وشفتاها ممتلئتان بتناسق فاتن ، كانت تنتعل

حذاء" بغير كعب كي لا تزداد طولا على طولها الفارع . في لفتة خاطفة نظرت لي من فوق إلى تحت، ووقعت عيناها على حذائي ، ثم رفعت وجهها ونظرت في عيني . ابتسمت عيناي لكنها كانت واجمة جامدة لا يصدر عنها أي رد فعل ، وتجاوزتني وأكملت طريقها ، شعرت بالخجل من أن أستدير وأنظر إليها من الخلف .

مضى يومي وانشغلت ونسيتها، ولكنني عندما استرخيت في فراشي ليلا تذكرتها واستحضرها عقلي

أمام عيني بكل تفاصيلها الجميلة، جرت الدماء في العروق المتكاسلة ، توهمت أنني تزوجتها وأنا أمسك يدها عبر الصالة متجهين إلى غرفة النوم ، وكم أحب اللون الكحلي .

أفقت من أحلامي المستيقظة على شد عضل قوي في بطن فخذي، أثنيت أصابع قدمي باتجاه أنفي وشددت ساقي بقوة حتى ذهب توتر العضلة ، سألت نفسي هل من الممكن أن أقبل بامرأة انكشفت على رجل قبلي وتقاسما الريق والأنفاس واختلطا حتى الإعياء ؟ وكيف سينظر لي أصدقائي وأقربائي كعازب يتزوج من أرملة ؟ !

حاولت تجاهل التفكير فيها لكن فشلت، كان جمالها يستحوذ على خيالي ويعصرني كعود قصب يمر ببطء في فوهة عاصرة حديدية تسحبه إلى الداخل ولا تفلته، جذبتُ الوسادة من شعرها بعنف الغرام ثم انفلق الصبح !

بسرعة ولهفة كمن ينتظر موعدا هرولت إلى المقهى جلست على الرصيف وأصبحنا خمسة رجال مصفوفين بجوار بعضنا، لم يكن صعبا أن أكتشف أن الذي جمعنا وأيقظنا مبكرا وجعلنا نتزاحم على الجلوس هكذا هو انتظار إشراقة الشمس، شمس الأرملة الجميلة. كانت عشرة أعين تنهش لحم المرأة وهي تمر أمامنا ، وتشجَّعَ فكري وقال :

((فرسة عاوزة خيال ! !)) وصبي المقهى يهز مصفاة النار بعصبية واحتراف ولا ينزع عينيه عنها ويرفع صوته ((يا مصبر الوحش)) وفكري يرد عليه ساخرا ((الشراقوة عزموا القطر)) ويدخلان في مبارزة ساخرة بالألسنة ! يمتلأ الشارع بالأقدام ، تتزاحم العربات ويعلو الضجيج وآلات التنبيه، نساء وبنات يعبرن ، تنتقل الأعين هنا وهناك، دون أن تفقد تركيزها الحميم مع صاحبة الفستان البني . كل واحد منهم يحلم بالارتباط بها دون أن يتجرّأ على التقدّم لخطبتها ، أنا بينهم الأعزب الأكثر ترددا، تفاصيلها تجذبني إليها بقوّة ، أتحيّر في مشاعري نحوها هل يكفي انبهاري بجمالها الجسدي لفتح بيت جديد ؟ هل يمكن أن نبقى معا بعدما تنتهي اللذة ويبترد وهج الغرام؟ حاجز عظيم بداخلي

يعوقني عن تقبل الفكرة ، أنا أريد فتاة عذراء، ناقوس مزعج يدق رأسي "عذراء" تحرقني الكلمة لكن رغبتي فيها تحرقني أكثر !

رأيتها صباح وظهيرة الأسبوع كلّه، كان فستانها البني الضيق لغزا محيّرا بالنسبة لي ، في الأحد التالي لم تظهر المرأة في الصباح ، انقضى الأسبوع ولم يرها أحد ، وعندما امتلأت المقهى بالزبائن بعد صلاة الجمعة ، كانت التهاني تنهمر على فؤاد، لم يخطر ببال أحد منّا أنّ ابتسامات الأرملة لفؤاد وتجاذب أطراف الحديث معه وهي تشتري الخضروات أثناء عودتها من المدرسة ستنتهي هذه النهاية. عندما سألت فكري واهما نفسي أنّ ما فهمته خطأ، أكدّ لي

أنـــّ فؤاد تزوّج الأرملة وقضيا أسبوع العسل الأوّل !! اتسعت عيناي وأنا مستغرق في دهشة خانقة وسألت صديقي :كيف قبلت هذه المرأة الجميلة برجل كفؤاد بائع الخضار الجوال في شوارع المدينة على باب الله ؟ !

عندئذ تدخل العجوز عم رفعت في الحديث وهو ينفخ دخان المعسلة ويكح قائلا : ((هي تطول ؟ دي مدرسة (كحيانة) مفيش حيلتها إلا الفستان البنى الضيق اللي بتجننكم بيه كل يوم، وعايشة في بيت أخوها ومراته سقياها الذل ! و فؤاد شاب لسه بدمه، خلقته حلوة ودمه خفيف وعنده شقته وما دخلش دنيا، وبيعرف يفك الخط !))

نظرت لشفاه عم رفعت بغيظ وسألته كيف تعرف كل هذه التفاصيل ؟

فنظر لي بثقة وأخبرني أن البيت أمام البيت وأنها زميلة

ابنته ! قلت في نفسي عجوز مفضوح وشعرت بالندم على

ضياع هذه الجوهرة من يدي لأسباب تافهة بداخلي !

هتك عرض

صعدت إلى عربة القطار بمنتهى الخفة والرشاقة كأنثى فهد، امرأة بيضاء بغمازات على الخدين وعينين واسعتين كحيلتين، خصرها الضيق يكشف بوضوح ضخامة تفاصيلها ، كانت أطول منى بقدر فنجان قهوة تقريبا ، وفي وزني مرة ونصف كما تهيأ لي أو أقل، تمسكت جيدا بمقبض باب القطار، وبدأت تجذب صديقاتها من رصيف المحطة إلى الداخل والقطار يوشك على التحرّك، جذبت

امرأتين وأخذت تتلقى من الثالثة (مشنات البلح) والجوافة وأجولة البطاطس والبصل، صفر القطار صفارة الانطلاق فجذبت المرأة الأخيرة من يدها وأدخلتها العربة كأنها ترفع (سطل لبن) النساء الثلاث يلبسن عباءات سوداء أما هي فترتدي فستانا فلاحي الأساور بمبي اللون يرسم جميع تفاصيلها البديعة الضخمة ببراعة، ويكشف قصره عن سمانتين كثمرتي شمام صغيرتين، كنت أجلس بين خمسة شباب لا أعرفهم في المقعدين المتقابلين، جلست النساء على أجولة البطاطس في المنطقة بين البابين، وظلت أنثى الفهد واقفة على حيلها القوي، أشعل شاب سيجارة ووقف ثم اتجه صوب الباب لينفث الدخان في فتحة الباب المغلق، أنهى السيجارة بسرعة والتفت وبحركة غادرة لمس

المرأة بيده لمسة بطيئة من تحت إلى فوق ، ثم تجاوزها متجاهلا ما حدث، كانت المرأة تعطيه ظهرها لحظة اعتدائه على جسمها ، لم ير أحد منا يدها لكننا سمعنا صوتا يشبه تنفيض المراتب القطن بمضارب الخيزران ! الشاب هوى منكفئا على وجهه ولم يتحرك، الآهة التي خرجت من فمه أفزعت الركاب، اندفع الشباب نحوها وهم يسبون ويلعنون . . .

ماذا فعلت يا امرأة ؟

ألا أحد يعجبك ؟

ألا يوجد من يملأ عينك ؟

سوف نربيك من جديد !

وبدأت المعركة بين الفلاحات والشبان، المرأة عجنت الشباب الأربعة عجنا وكومتهم فوق بعضهم بعضا كالخبز جوار الباب ، كانت الفتيات والنساء في العربة يصفقن ويزغردن، والرجال يمارسون النفاق الجبان والتشجيع الكاذب، شباب قليل التربية ، يستحقون الضرب بالأحذية !

أجلست صديقاتها مكان الشباب وجلست أمامي، كان أصبعها مجروحا يسيل منه الدم من أثر لكمة في أسنان أحدهم، أخرجت منديلا وزجاجة عطر صغيرة بحجم أصبع من جيبي، أمسكت يدها وطهرت الجرح ، ولففت منديلا عليه وضممته في يدي فحبست الدم ، قالت : ربنا يجبر خاطرك ، ابتسمت و قلت :وخاطرك يا قمر، نظرت في

عيني ونظرت في عينيها ، رفعت حاجبيها مندهشة وجذبت أصبعها وصرفت وجهها إلى النافذة ، أفاق الشبان من أثر (العلقة) بسكب الماء على وجوههم بمساعدة ركاب آخرين لا نعرف صلتهم ببعض، تحاملوا وجلسوا يتهامسون على أرضية القطار مستندين بظهورهم على جوانب العربة ، انتابني شعور سيء ، ولكن سرعان ما تجاهلته، أبطأ القطار وتوقف في المحطة ونزل الشبان وأغلب ركاب العربة وصعد آخرون، ظللت أنظر إلى ملامحها وعينيها وهي تتجنب تماما لقاء الأعين ، أخذت أغني (طول عمري بخاف من الحب وسيرة الحب وظلم الحب لكل أصحابه وأعرف حكايات مليانة آهات ودموع وأنين والعاشقين دابوا . .ما تابوا)

قالت:(حسك حلو) وأشرق وجهها ونضح بالحسن والسرور .

سألتها اسمك إيه ؟ قالت : قوت القلوب ، وعرفت أنّها تركب صباح كل يوم من المنصورة لتبيع ما تستطيع حمله على رأسها من الخضروات والفاكهة في المحطات حتى بنها ، لتأكل من عرق جبينها ، حاولت أن أستفسر عن حياتها الخاصة لكنها قالت: (سيب الغطا محبوك) لاحظت انجذابي الشديد نحوها فسألتني اسمك إيه ؟قلت : فضل .

- رايح فين ؟

- القاهرة

- بتشتغل ؟

- لا طالب في الجامعة

- عمرك كام ؟

- ٢٢ سنة

- ربنا ينجح مقاصدك يا سي فضل .

توقف القطار ونزل ركاب وصعد آخرون قالت: سأنزل المحطة التالية ، قلت لها : أريد أن أراك ، قالت: صباح كل نهار جديد ستجدني في القطار، ثم وقفت صديقاتها وتكدسن عند الباب ، ووقفت أنا وقوت القلوب متقابلين وأنا أمسك يدها الجريحة في يدي وعيناي تلمعان بالدمع ، قلت لها : لن أنساك أبدا ، توقف القطار ونزل الركاب وبدأت إنزال الأجولة ومشنات الجوافة والبلح على الرصيف ، نظرت من النافذة ، أشرت لها مودعا، وضعت قبلة على أطراف أصابعي

ولوحت لها بها، تحرك القطار ببطء، والزحام في المحطة يجعل الناس يشبهون بعضهم البعض، كانت شامخة بطولها الفارع وقوامها الجميل وفستانها الفلاحي البمبي ، في حين اندفع نحوها مجموعة شبان يحملون الشوم، صرخت بأعلى صوت لتحذيرها واندفعت ناحية الباب مذعورا ولكن القطار انطلق بسرعة وانزوى عن الرصيف فلم أعد أرى أي شيء .

الصلاة على بندق

سرقناه من تحت أمه، كنا نشاهدها تبكي عليه بالدموع الحقيقية كأي أم، رغم أن لديها جراء جميلة كثيرة ولدتها في بطن واحدة.

لم تتوقف عن البكاء عليه أبدا، أخفيناه في بئر السلم وأقمنا عليه السدود من أقفاص الطماطم الفارغة، ونضع له اللبن والماء.

كانت تكلمني وكنت أسمعها بدون أي شك، أعد لي ابني ، لماذا سرقتما ولدي ؟

وكنت أقول لها : أعدك أننا سنربيه أحسن تربية ونجعله كلبا عظيما يا توسكا !

كانت ترد على كلماتي بعبارة ساخرة، ربي نفسك الأول ! !

عم سادات بائع القصب في حارتنا أسماها توسكا منذ ولادتها ، كلبة صفراء جميلة ووفية وفيها حنان بشري معجز، كانت كل يوم تسألني عنه، ابني بخير يا أدهم؟

وكنت أطمئنها متجاهلا كل توسلاتها لي بإعادته إلى حضنها وأثدائها العامرة باللبن .

جاء الميكروباص وأخذنا كراسي وطرابيزة وأكلا وملابس وحلل طبيخ وأنبوبة وشعلة ونحن نكاد نطير من الفرحة لأننا سنقضي أسبوعا كاملا في الجربى برأس البر،

عمي سيدفن نفسه في الرمل طيلة الأسبوع كعلاج طبي لأمراض كثيرة.

في مساء اليوم الثالث بعد أن شبعنا من البحر وتقشر جلدنا من الماء المالح وأصبحنا أطفالا مسلوخة، ضربني مروان على كتفي قائلا بفزع بندق!

شهقت صارخا هذا نهار أسود لابد أنه مات من الجوع، لقد حبسناه وتوسكا لن تستطيع الدخول إليه، ونحن لن نعود إلى دمياط إلاّ بعد أربعة أيام!

يا لنا من مستهترين أولاد ستين ، كانت تترد في حلقي دون أن أنطقها وأنا ألعن نفسي وابن عمي، عندما رجعنا بعد الشروق أسرعنا كالمجانين وعند باب الشارع كانت رائحة بندق تغشى البيت كلّه، ارتديت أكياس بلاستيك في يدي وأخذنا المرحوم وابتعدنا عن البيت بناحية أرض حامد العبد الفاضية، قال لي : قتلناه !

كنت أبكي وأنوح لجريمتنا وقسوة قلوبنا غير المقصودة، بدأت الحفر وبدأ مروان يساعدني، ثم وارينا الجثمان الثرى .

نظر لي ونظرت إليه ونطقناها معا سنصلي عليه !

وقفت أماما ووقف على يساري، وأتممنا صلاة الجنازة دون أن نضع شاهد قبر على صديقنا بندق.

لم يرنا أحد إلا الله والحاجة سماح بائعة بيض الفراخ.

في صباح اليوم التالي وأنا أعطيها الجنيه وآخذ منها البيض قالت لي : أنا كنت في عشة الفراخ وأنت تصلي على الكلب! سقط البيض وتهشم وتناثر الصفار والبياض على أرجلنا، ارتبكت وانعقد لساني وانحبس الكلام، قالت بجدية وهي تنظف مشمع الأرضية وتلملم بقايا البيض أنت ولد رقيق القلب ومرهف ولست أول من يصلي على كلب!

وطمأنتني : لا تخف سأعطيك بيضا بديلا، ثم قالت لي : اقعد أحكي لك حكاية :

كان في الماضي رجل وصاحبه مات كلبهما الغالي عليهما فدفناه ثم صليا عليه، وهما يتبتلان في الصلاة عادت جنازة كثيرة الناس من المقابر، وكان الصديقان دفنا كلبهما بجوار مقابر الآدميين لأنه لا توجد مقابر للكلاب، قالتها ولمست خدي مداعبة لتخفف عني رعبي على البيض الذي تهشم، قلت لها وماذا بعد يا حاجة سماح؟

قالت : وقفت الجنازة حول الصاحبين حتى أنهيا الصلاة ثم سألوهما من المتوفي فقال الأذكى بينهما مولانا العارف بالله (أبو وردة)، واستدرك كان يسكن في طرف القرية ولا يعرف سره إلاّ نحن ، لم يكذب الناس الخبر وما هي إلاّ ساعات وكان ضريح الإمام مبنيا ومضاءً وعليه(سبيل قلل) وأصبح مقام

القرية، مضت السنوات وتخاصم الصديقان في تجارة وأكل الصديق الأذكى مبلغا كبيرا بحجة أنه خسره ، وأخذ يقسم ويحلف حتى قال لصديقه ومقام سيدنا الإمام (أبو وردة)

أنا لا أكذب عليك ؟ تجلت عروق الغضب في رقبة صديقه ، وبصق في وجهه، وأمسكه من رقبة الجلباب ونظر في عينيه بقسوة وشرر وقال له : مقام من يا حرامي ؟ !

الإشارة

العريش ترحب بكم ، تحيرت السيارة الملاكي قليلا ثم أخذنا طريق بئر العبد – الرمانة، دخلنا المدق أول ضوء، أوقفتنا سارية خشبية تقطع الطريق وعلى يسارها غرفة واحدة ، ظهر جندي مشهرا بندقيته الكلاشنكوف ، نزل الرجال من الملاكي وقالوا للجندي عندنا زيارة للبوغاز ، سأل الجندي عن كلمة سر الإشارة فقلنا ، حاتم ، راجع الجندي دفتر الاشارات وقال لا يوجد، قال عم عبده راجع جيدا

ربما تكون في صفحة الأمس، قال لا يوجد، أحسسنا أن الدنيا انتهت هنا، صعد الجندي على سطح الغرفة، وبدأ ينادي في اللاسلكي ، حشد حشد حشد ، أسد ينادى حشد، إن كنت تسمعني حول، قال الجندي لن يمكننا الانتظار هنا وعلينا الانصراف ، جلسنا على مقهى ، كان الحر شديدا جدا ، والجو خانق قلت للقهوجي إن أمكن تزيد سرعة المروحة، انتفض سمك واقفا وقال: الجمبري، وهرع إلى الميكروباص، كانت البطاريات ايفريدي ضعفت جدا، قال سمك كمالة البخت الجمبري مات.

أزاح الجندي السارية بعد أن أبلغناه بالإشارة الصحيحة، واندفع الموكب وتحول الغم إلى فرحة ونكات وحكايات ، كانت العربات تصعد وتهبط على طريق أسفلت تم تشييده على تلال متتابعة كمئة سنم جمل متباعدين ، روحي تنسحب مني عندما نهبط وتحاملت بصعوبة خوفا أن أتقيأ أو أفقد الوعي ، مررنا بعشش للبدو على الشاطئ، وشاهدنا غزل السمان منصوبا بطول ساحل البحر بعد أن انتهى بنا طريق التلال إلى مدق رملي موازٍ لشط البحر، أبطأت الربع نقل أمامنا ، كنا نعبر منطقة رمال ناعمة مرت الملاكي والربع بصعوبة وصرخت المواتير وانتشر عادم كثيف أسود، عندما أردنا العبور مثلهم غرزنا، غاصت الأربع عجلات في الرمال، نزلنا جميعا وتوقف الموكب وتجمعنا في محاولات يائسة لدفع الميكروباص لإخراجه

من ورطته، قال سائق الميكروباص أن الحبل ظل في السيارة عاما كاملا لم يخرجه منها إلا بالأمس ونسيه في الجراش، فتش كل سائق عن حبل ، عن متر واحد من الحبال فلم يجد، اقترح دهب ان تكمل الملاكي المسيرة وتعود بالحبل من النقطة العسكرية على البحيرة، لكن الفكرة لم تعجب الجميع، حاولنا أن نحفر تحت العجلات ونبعد عنها الرمال ثم عاودنا

دفع السيارة لإخراجها ففشلنا، لمعت فكرة في ذهني فذهبت لمحمد صاحب النقل وقلت هل يمكنك الاستدارة خلف الميكروباص ووضع مقدمة سيارتك في مؤخرة الميكروباص ودفعه للأمام، قال ينصر دينك ، واستدار بالسيارة وخرج عن المدق مشى عدة

أمتار وغاصت عجلاته في الرمال، انفجرت في ضحك هيستيري ، نهرني عم عبده ماذا يضحكك هكذا ؟ أشرت بيدي الى الربع النقل وقلت ، فكوا السلبة ، فك محمد الحبل من فوق حمولة النقل ونحن جميعا نتعجب لقد كان الحبل أمامنا طيلة الوقت .

فتح سمك غطاء برميل جمبري وكانت مواتير الهواء قد سكتت منذ ساعة تقريبا ، مد يده عميقا وحركها ثم أخرجها وبها ثلاثة براغيت أحياء، وقال ما يزال معنا جمبري حي ، مضت نصف ساعة ووجدنا أنفسنا أمام شاطئ البحيرة، أنا وسمك ودهب بدأنا في جلب المياه بالجرادل لتغيير ماء البراميل، عزلنا الجمبري الحي في برطمان عملاق تم تخريمه بشينيور عشرات

الثقوب ليسمح بدخول الماء للبرطمان ويمنع خروج الجمبري ، قال دهب ربنا جبر خاطرنا ما يزال لدينا ذخيرة حية، جمع كل صياد عدته دون أي تفكير في النوم أو الاسترخاء، واندفعنا جميعا إلى الصخور لتلبية نداء الهواية العظيم .

اصطففنا على شاطئ البحيرة ، بسم الله قالها سمك وألقى السنارة، رفع دهب صوته مدندنا بابه لا يغلق، كنا نقف على أسفلت متكسر يشرف على الماء مباشرة وتتهادى دفقات الماء وتلمس أصابع أقدامنا الحافية، لا شيء بعد، أبدلنا تكنيك الصيد نزعنا الغمازات وصرنا نلقي الطعم على الأرض لمسافة خمسين مترا، فجأة اندفعت سمكة بوري ضخمة باتجاهنا كأنها تهرب من وحش هائل، ظهر فكان مليئان

بالأسنان وقضما السمكة فقسماها من منطقة البطن ، وظل رأس السمكة يندفع باتجاه الشاطئ بدون يأس، حتى استقر في قفزته الأخيرة خلفنا ، ذهبت وأخذت ثلث السمكة الباقي وتأملناه بأعجوبة وأنا أتساءل عن الوحش الذى قضمها قضمة واحدة ، قال وجدى دهب (دراك)، وضعت الجزء الناجي من السمكة في المرجونة ، رفعنا أعيننا إلى بوصة محمد سمك وانتظرنا وهو يلف البكرة بقوة والسمكة لا تبدي أي ردة فعل، أحضرت الجلب وانتشلت أول فرحتنا من الماء ، وقفت كالممسوس وأنا أخبرهم ، هذه ركبة بنى آدم ! ! قال وجدي (شهيد) .

لم أتجرأ على لمس الركبة الآدمية، أخرجها وجدى من شبكة الجلب وهو يقول رحمة ونور في الفردوس يا غالي، قلت : هل يمكن أن تكون ركبة يهودي ؟ قال : سمك : العلم عند الله، قال: ماهر ندفنها ، تركناها على الرمال وراءنا وباشرنا الصيد، الدنيس الفضي الكبير أنسانا تعب الرحلة كلها، وجدي يكرر لأزمة الصيد الخاصة به بابه لا يغلق، وسمك يرد : من الحلو ، وأنا أتعجب معقول دنيس بهذا الحجم ! ! ، في ذروة هجوم الدنيس على الجمبري في سنانيرنا لاحظت بلوغ الماء سمانة رجلي ، ومع انحسار الماء شيئا فشيئا ، لم نعد نصطاد أي شيء، النوم الذى غالبناه بقوة منذ مساء الأحد في دمياط، سحقنا كلنا فورا لمجرد اختفاء الأسماك، التففنا لصوت السلام عليكم ، وجدنا بدويا يجلس على ركبتيه أمام

الركبة، ويتكلم معها ، رددنا السلام وظللنا نشاهد في صمت، قرأ الرجل آيات من القرآن والتقطت أذني آيات توراتية لم أشك لحظة في سماعها، أدخل البدوي يده في سيالة الجلابية وحمل الركبة وناولها لنفسه فأصبحت تحت الجلباب في يده اليسرى، قلت له يا سيدنا ، أهو شهيد مصري، قال أي نعم ، عبد الحفيظ ولد أسماء، اتسعت حدقاتنا ونظرنا لبعضنا البعض باندهاش والتففنا لنسأله ماذا ستفعل بها لكننا لم نجد أمامنا إلا الرمال، نظرنا في كلّ الاتجاهات، كان الهجير يموج كالسراب على مرمى البصر.

شروق

هل أبدو كعريس ؟

صدمتني الكلمة ، مرت عيناي على شاربيه وشعره في نظرة خاطفة وتعجبت للمهارة الفائقة لا أثر لأى شعر أبيض !

قلت: أجمل العرسان .

قال: سنذهب إلى الموعد الذى طلبت منك مرافقتي فيه أنت اليوم ولي أمري ستخطب لي !

ضحك وضحكت . . ورفع يده وتضاربنا كفا بكف، ألف مبروك ، قلتها وشرد ذهني في هذا العاشق للحياة الذى يكبرني بثلاثين سنة، و يفكر في زوجة ثالثة ! ! ولكن لم أرد أن أهدم الأفراح في فؤاده الخافق بالحب، فالخامسة والستون ليست نهاية الرجولة ، رغم فارق السنين صداقتنا حميمة جدا ، تعارفنا على المقهى وقربت لعبة الشطرنج بيننا وصرنا صديقين ، لا نخفي أي شيء عن بعضنا البعض ، حتى لحظاته الحميمة مع زوجته المرحومة الثانية التي أنجبت له خمسة أولاد حكاها لي ، ماتت زوجته الأولى أثناء ولادة ابنته البكرية، كل تفاصيل حياتي يعرفها ، أمسك كتفي وقال: فيما سرحت يا أسامة ؟

قلت: لا أبدا أنا أسمعك ؛

قال: ما آخر كلمة قلتها ؟

ضحكت ، نظر في عيني وقال :سنذهب لطلب يد شروق ! !

قلت: شروق من ؟

قال: الممرضة، أنت تعرفها ،

اتسعت عيناي وفغرت فمي مندهشا وقلت له: شروق ستموت في يدها يا رجل، وإذا لم تمت واختلفتما معا لو صفعتك ستسقط فكيك وتموت بارتجاج في المخ ! !

ضحك ساخرا وظهر طقم الأسنان بديعا ونظيفا وقال: لا أحد يموت ناقص عمر .

أقمنا حفلة محدودة في بيت الأرملة الأربعينية الفارعة، باركنا العروسين وانصرفنا، مضت سبعة أيام عسل وخبر الوفاة ملأ البلد، بعد أن انتهينا من الدفن وجفت الدموع، ترحم عليها وقال: أخفت عني أنها مريضة قلب، لم أعرف إلا في المستشفى بعد أن فات الأوان.

أرملة

ظلت ساعات طويلة تجرب نقابها الجديد أمام المرآة، لأول مرة في حياتها تعيش هذه اللحظة المدهشة، تعرف كل الناس ولكن لا يعرفها أحد، أحست برهبة مرعبة وهي تتمرن أمام المرآة وتتخيل اللحظة القاتلة التي ستمد فيها يدها بالسؤال لخلق الله، محل الملابس النسائية الذي كانت تعمل فيه مصدر دخلها الوحيد لها ولأمها ولأطفالها الثلاثة.

وهي توقظ زوجها في صباح يوم أسود لاحظت بقعة دم صغيرة جدا أمام أنفه، هزته بهدوء عدة مرات ثم صرخت بحروف اسمه صرخة مزلزلة علاااااء !

صوت الطبلاوي وهو يتلو (فادخلي في عبادي) ويد أم محسن تجذبها بعنف وتدخل بها الغرفة، أكلت بلا شهية وحمدت الله، لم يكن في البيت جنيها واحدا لمصاريف الكفن والجنازة وكراسي العزاء المرصوصة تحت البيت .

لم يخطر ببالها أن زوجة صاحب محل الملابس ستقطع عيشها بعد أن أصبحت أرملة تجري على أمّها وعيالها الثلاثة، غيرة على زوجها زائغ العينين طويل اليدين ، ولم تتوقع أنها ستذوب ذوبان الملح لتحصل على عمل جديد دون أمل،

أسبوع بعد أسبوع لم يعد بين أطفالها والجوع إلا جنيهات قليلة بقيت من ثمن قرطها الذهبي الذى فك كربها، أحكمت النقاب جيدا ليخفي أكبر قدر من وجهها و هي تسأل نفسها هل سيعرفها أحد من عينيها ؟ نامت قلقة وقررت أن تركب الميكروباص لمدينة لا يعرفها فيها أحد ثم تنزل تطلب رزقها من أيدى الناس، مرت أمام مقهى ودارت الفكرة في رأسها لكن لم تستطع قدماها السير حتى أول رجل يستميت على مبسم المعسلة ويكح ويبصق ويتنخع، أخذت قرارها وابتعدت، لفت انتباهها رجل وسيم وأنيق يجلس أمام محل بواجهة رخام وزجاج، قررت أن تفعلها هذه المرة بكل حسم، مشت اليه بخطوات مرتعشة، وقفت أمامه تماما وأوشكت أن تنطقها (ساعدني) مدت يدها وضمتها على الفور، تجمدت

الكلمات علىـــ لسانها، أدارت وجهها وانطلقت وهىـــ لا تصدق ما يحدث، فاجأها الصوت بإلحاح وقوة يا مدام. . يا ست .

التفتت فوضع فيـــ يدها ورقة مالية مثنية ، لم تنظر إليها ولا إليه، صرفت وجهها وتجمدت قدماها وهيـــ تسمر عينيها إلىـــ الأرض.

أجر الطبيب

جست رأسي وأنا أكرر اسمها ماما، ماما ، انتفضت وجرت إلى المطبخ ، ملأت طبقا بالماء وغطست فيه فانيلا حمالة مهترئة مزقتها عدة قطع، وضعت على جبهتي (كمادة)، وعلى رجلي (كمادتين)، فكرت في النزول لتجيء بقطعة ثلج من سماك العزبة، أرعبها أن تتركني وحدي لعشر دقائق كاملة، كانت الكمادات تفور على جسدي وتسخن ، تعيدها إلى الطبق تبللها وتعصرها ، وتغير ماء الطبق

كلما تحول إلى ماء ساخن ، تحيّرت ماذا تفعل وهي وحيدة وأبي لا يعود إلا عندما يعتم الشفق، ولا تملك أجرة الحنطور الذي تفكر في ركوبه من السكة العمومية، على بعد ثلاث دقائق من بيتنا، تذكرت القروش الألومينيوم، تسقطها واحدا واحدا كلما توفر معها في جيب بالطو قديم معلق على مسمار غليظ أعلى الحائط ، في غرفة أبي ، هرعت وأفرغت القروش ، وضعتها في منديلها القماش، لفت الملاءة السوداء على جسمها، حملتني ونزلت سلم البيت، شقت طريقها إلى سوق السمك الأكبر في القنطرة من الأراضي البائرة، أنهكها المشوار وهي تسير بي رغم وزني الخفيف جدا وسنواتي السبع، صعدت إلى الدكتور محمد عباس بعد نصف ساعة سير مقطوعة النفس، أدخلها التومرجي ، قال

الطبيب : التيفويد، الحمد لله، لقد جئت في الوقت المناسب، أمي أفرغت المنديل على مكتبه، أرسل التومرجي بالروشتة وعاد بالدواء، أعطى أمي منديلها وقروشها البيضاء، أوشكت أن تقبل يديه، لكنه انتزعها منها، أطفال كثيرون حصدتهم الحمى في البيوت التي تحيط ببيتنا من كل اتجاه، كانت أمي تحكي لي هذه الحكاية كثيرا ، لكنني لم أستطع أبدا دفع أجر هذا الطبيب.

عزة نفس

خلع جلبابه أمام الجميع، نزع سرواله الداخلي ، اندفع إلى الماء، شهق مرة واحدة ، ألقى ملابسه في المركب وبدأ يدفعه من الشاطئ إلى الماء دون مساعدة من أحد .

أخذ يلهث ويدفع بكل قواه لتحريك المركب المستميت على الرمل ، ونحن ننظر إليه دون أن نحاول مساعدته خوفا من الفتق والبلل، جرب مرات عديدة وفشل في تحرير المركب من الرمال، عندها تغير لونه وبرزت عروق رقبته وبدأ السب والشتائم .

: رحم الله الرجولة، ليس بينكم رجل رضع النخوة من صدر أمه ؟

شوارب على رجال أم نساء ؟

لم يتجرأ أحد منا أن يرد عليه، رغم زفارة لسانه الطويل جرت الدموع من عيني ، خلعت حذائي وتبعني شابان ، عندما طلع المد ازداد منسوب المياه حول القارب شبرين تقريبا ، بدأنا ندفع القارب وعندما انزلق وأصبح في الماء هتفنا بأنفاس مقطوعة الحمد لله .

قال لنا : شكرا يا رجال، وارتدى الجلباب ، عرض علينا أن نركب معه لإنزالنا على حجارة (محمدين) التي تجاوزها البحر وصنع وراءها بحيرة صغيرة بعمق مترين ، قال اسمعوا الكلام وربنا سيكرمكم كرما كبيرا، تردد الشابان وركبت معه، بدأ

العرق يتفصد من وجهه في باكورة الصباح الندي مع تحريك المجاديف بكل قوة، الشمس لم تظهر ، حبسها غمام (طوبة) الكثيف، سألني عن اسمي وتعارفنا، حكاياته الممتعة نقلتني إلى اليونان والفتيات الجميلات وليالي أثينا ، مغامراته بلغت حد شراء طائرة بوينج خرجت من الخدمة ! ! ملأ قلبي سعادة بأكاذيبه اللذيذة، أخرجت الأكل ، وأجبرته على الإفطار معي رغم عزة نفسه التي وقفت حائلا بيننا عدة دقائق، حمد الله وناولته زجاجة الماء الباردة فشرب وبدأ البكاء كطفل مقهور، قال بالأمس : وأنا أرفع المركب وأجرها على الرمال، بمساعدة صياد زميلنا يده عاجزة، وبعد أن جمعت رزق الأمس ، ليس شيئا كثيرا ، (بوري ولوت) والقليل من سمك موسى ، قلت : ما شاء الله

قال : صل على النبي !

قلت :عليه الصلاة والسلام .

قال : فوجئت بثعبان أسود كبير بين قدمي !

قفزت مرعوبا واعتليت المركب ونظرت إليه ، هل تعرف ماذا كان ؟ قلت :لا ، ضحك ثم اغتم وقال : (فردة كاوتش موتوسيكل جوانية) ، واستغرق في البكاء بحرقة .

قلت : اهدأ يا حاج سيد وحد الله .

قال : لا إله إلا الله .

تمخط وجعل كم جلبابه منديلا وأكمل الكلام : دخلت على زوجتي البيت والدنيا لا تسعني من الفرحة قلت لها :

ربنا فك الكرب وفرجت والحال سيتغير، وعندما رأت فردة الكاوتش وأكياس البودرة، قالت : حد الله بيني وبينك لو أدخلت علينا قرشا ليس من عرق جبينك .

- نحسها نحس ذكر -

الهيروين ظل في الكاوتش سنوات طويلة في قاع البحر حتى تسرب الماء المالح إليه وبردت حدته وأثره ، ولما تحررت الفردة من الحجر المربوط معها ، قذفها البحر حتى قدمي ، وعندما أخذت كيس بودرة ل علي سرنجة العجلاتي خبير الأفيون والبودرة قال لي : ليس لديك حظ أنت منحوس !

كشف على كل الأكياس وقال: لا يوجد أمل !

بودرة باردة كأنها بودرة ثوم !

طيبت خاطره قائلا : ربنا يغنيك بالحلال يا عم السيد، قال : انزل على مهلك ربنا يرزقك، معك جمبري أبيض ؟

قلت : نعم (أبيض وسركوس وجلخ)

قال : ركز طعومك بالجمبري الأبيض الحي ، سمك القاروس يفضله ولا يأكل (الجلخ) القاسي الخشن !

تركني على الأحجار في وسط البحر وانصرف ساعيا على رزقه أشار لي مودعا وقال: سأعود إليك قبل العاشرة، وغاب عن مرمى بصري !

قلت لنفسي : ما هذا الغباء أنا لا أعرف السباحة والرجل الغريب أخذ المركب وابتعد في العميق !

ماذا لو مات أو غرق أو نسيني ؟ !

طردت وساوسي وشجعني وفرة القاروس في سنانير الصيادين على حجارة الشاطئ .

انشغلت ومضت ساعة بعد أخرى وأنا أصطاد، لم أعد أسمع أصوات الصيادين من خلفي ، دب الهلع في قلبي ونظرت ورائي فلم يعد في البحر إلا أنا ، نظرت أمامي ويميني وشمالي ، كانت السماء غائمة والشمس مختنقة والبحر ليس له نهاية والمطر المحتبس تدفعه الرياح من آخر الأفق ويتقدم نحوي ببطء .

حلة المحشي الفارغة

أحضرت أكبر حلة ، وضعت ذكر البط المحمر في وسطها ، وأهالت عليه أصابع المحشي ، فردت شالا واسعا على طرابيزة السفرة، وضعت الحلة في المنتصف وأغلقتها ، وأحكمت ربط الشال من أطرافه الأربعة، أعطتني مائة وخمسين جنيها في ظرف، ثنيته عدة ثنيات ووضعته في الجوارب، ودعتها وخرجت وهي تدعو لي ربنا يسلم طريقك يا ابن قلبي .

تجمعنا نحن الخمسة وركبنا السرفيس ، نزلنا ميدان البوسطة في قلب مدينة دمياط ومشينا لميدان الكباس وتكدسنا داخل

بيجو سبعة راكب من موقف (أبو طبل) ، لم ننتظر طويلا ، جاءت امرأة حسناء ورجل عجوز، ركبا جوار السائق، قال الفاتحة للنبي ، و الشيخ سيد سعيد يقرأ (وقطعن أيديهن) .

انطلقنا وبعد نصف ساعة تقريبا خفف من سرعته ، كشافات السيارة لم تستطع إنارة الطريق أمامنا ، فاختار مكانا هابطا في الأرض وتوقف ، سألناه ما الحكاية، قال الشبورة كاسية .

نزلنا وأشعلنا السجائر وكل واحد منا يحاول لفت انتباه المرأة الجميلة، ارتفعت الشمس قليلا فركبنا ، أراد السائق تعويض الوقت الضائع، فنبهته المرأة برقة على مهلك يا أسطى أنت معك أرواح .

حلة المحشي ظلت على فخذي رفضت وضعها في شنطة السيارة ، كان أصحابي مستغرقين في حكاياتهم ، مستمتعين بتفاعل المرأة بابتسامة أو ضحكة .

توهمت كأنني أحلم مستيقظا ، رأيت نخلة كبيرة تقطع الطريق، واللصوص يشهرون البنادق في وجوهنا وينزلوننا من السيارة، وزعيمهم يصرخ فينا بصوت غاضب ، أين حلة المحشى يا أولاد الشياطين ؟ وأصحابي الأربعة يبيعونني في لحظة ويقولون للزعيم، فيها دكربط يا معلم !

انتبهت على صرخة فزع من فم السائق يا ساتر يا رب، كانت السيارة البيجو المنكوبة مقدمتها كلها تحطمت وانكبست في بعضها حتى الكرسي الأخير والدماء تنز من الصاج وتسيل

حتى تتجمع على التراب، السيارة انحرفت على سرعة كبيرة واصطدمت ببغلة الكوبرى الخرسانية، كلهم ماتوا، أكمل سائق الجرار الزراعي كلامه، الشرطة والاسعاف في الطريق، إنا لله وإنا إليه راجعون .

واصلنا المسير ثم توقفنا في بلدة كفر شكر، العجوز دخل حمام الكافتيريا، وجلست المرأة على منضدة وطلبت قهوة، طلبنا شاي وبسكويت وملاعق، وحلة المحشي على فخذي، ربع ساعة فقط وانطلقنا .

لم نشعر بالاختناق إلا في مدخل شبرا، زحام فظيع، وصلنا مكتب أبو طبل في العتبة، أكلنا خبز فينو وجبنة، والناس يتأملون الحلة الملفوفة في الشال ورأس الغطاء الألومنيوم المستدير بفضول،

ركبنا أتوبيسا ومن الأتوبيس ركبنا ميكروباص، أنزلنا السائق وأشار إلى طريق أسفلت واسع يتقاطع مع الطريق الصحراوي .

قال صبي جمع الأجرة: الكيلو ٢٦ الوحدة العسكرية هناك، نظرنا إلى الطريق الذي لا تبدو له نهاية !

مشينا ثم مشينا ثم مشينا، مرت ساعات والسجائر أوشكت على النفاد أنهكنا المشي ووقفنا نتساءل، هل أخطأ السائق؟ ظهرت سيارات تعبرنا باتجاه الطريق الذي أتينا منه، حاولنا إيقاف واحدة لنسأل هل نمشي في الطريق الصحيح؟ !

لكن لم يتوقف لنا أحد، سلمنا لله أمرنا وواصلنا المشي، لاحظنا قدوم عسكري في اتجاهنا من بعيد، سألناه: مركز

تدريب. . .قاطعنا، واصلوا المسير، أشعلنا له سيجارة وواصلنا السير.

تغير ايقاع سيرنا بعد أن عرفنا أننا اقتربنا، قلنا لعسكري البوابة السلام عليكم: معنا زيارة، قال الزيارة انتهت!

وقعنا في الأرض وظهر التعب علينا كأننا شخنا فجأة، بعد توسلات ومحايلات، تحدث العسكري مع زميله وزميله تحدث مع الصول، مرت نصف ساعة بطول عام ثم ظهر

أخي من بعيد يقترب من البوابة، الفرحة أفاقتنا، سلمته حلة المحشي، خلعت فردة الحذاء ونزعت الجوارب وأعطيته له وقلت فيه مائة وخمسون جنيها.

في طريق عودتنا نزل الشفق الأحمر، ركبنا سيارة ربع نقل، أنزلتنا على الطريق الرئيسي، صبى السواق أيقظنا في رمسيس ونحن نائمين كالأموات، تحسسنا جيوبنا وذهبنا لشراء سندويتشات وسجائر، جلسنا على مقهى وشربنا الشاي، وعدنا في القطار.

ليلة الخميس انتفضت من سريري لأفتح الباب بعد رنات الجرس بعد الفجر بقليل، بدا في عيني كشبح نجا من مجاعة!

قلت وأنا أضمه بحرارة ولهفة حمدا لله على السلامة.

جلس يلتقط أنفاسه شرب نصف زجاجة الماء، وضعت أمامه طبق بلح، أيقظت أمي وأبي، سألته، أكلت محشي؟ قال

مبتسما : أدركت خمسة أو ستة أصابع، ابتلعت ريقي بصعوبة و سألته وذكر البط ؟ !

قال : أدركت ربع صدر وجناح !

قامت أمي بسن السكين بحكها يمينا ويسارا على درابزين السلم الخرساني ، وصعدت إلى السطح، وأنا أتحسس حقيبة السفر بحثا عن حلتنا الفارغة .

السمكة الأخيرة

مضت شهور طويلة منذ وفاة أمي ولم نذهب الى البحر . الصيد في صيام رمضان صعب، لكننا عزمنا الأمر أنا وأخي صابر . نخرج من صلاة الفجر مهرولين، بمجرد تلفظ الامام بالتسليم الثاني .

صيادون كثيرون يسرعون إلى البحر عند سماع الآذان، دون أي شعور بالأسى لتجاهل فرض الله،

يتسابق الجميع على الطريق، من أجل الوصول أولا والحصول على حجر في موقع متميز .

وصلنا متأخرين عن بقية أصحابنا إلى الحاجز الخرساني الذى يمتد لمسافة كيلو متر في البحر، وقفنا على حجرين متقابلين شكلا مصطبة مستوية آمنة .

فتحت البوصة التي امتدت بطول خمسة أمطار، سميت الله، فتحت غطاء الجردل البلاستيكي والهواء يتدفق من الموتور الصغير عبر خرطوم دقيق إلى قطعة فخار كمكعبات السكر تنفث ثقوبها الهواء المتجدد في الماء المالح ليهب الحياة للجمبري الحي ، أمسكت (جمبرياية) حية تتقافز وتفلت في كل اتجاه، برفق واحتراف أدخلت سلاح السنارة في رأسها النابض بالحياة

دون أن أقتلها ، ثم قذفت الطعم في البحر، بحركة فنية تحتاج مهارة وتدريب .

الجو جميل جدا والمياه تترنح برفق كأنثى تتدلل وتلطم أحجار الشاطئ، نسمة باردة تطل على الكون كل صباح قبل ميلاد الشمس، نور أبيض يغلف الملكوت لا ينبع من ضوء قمر ولا نور شمس .

مرت نصف ساعة و لم تظهر أسماك بعد .

حركة المد والجزر جعلت غمازتي تقترب من البر، وفي اللحظة التي قررت فيها أن أسحب سنارتي خارج الماء ، غرقت غمازتي في غمضة عين، دق قلبي بعنف، رعشة أحبها سرت في جسمي كله، ركبتاي

تصطكان، حلقي يجف، انحنيت في وضع الركوع، انتظرت. . .انتظرت. . .انتظرت. . .عشر ثوان كأنها شهر، بدأت ألف الخيط على البكرة ببطء ، أخذت القرار وضربت، جذبت البوصة إلى الأعلى كأني ألطم الأفق، فارتدت بقوة باتجاه الماء، علقتها، السنارة شبكت في حلق السمكة فاندفعت بكل قوتها إلى أعماق الماء، تنحرف مرة نحو اليمين أو اليسار أو تسبقني إلى البر! تستميت للخلاص من سلاح السنارة، قوة مدهشة كأن حصانا علق في الخيط ، العيون تتحول للتركيز معي . تنزل النصائح على أذني كالمطر، (على مهلك) (أرخ لها الخيط) (ترفق بها) .

فقدت مهارتي مع الأسماك، لم أسرح منذ عام تقريبا . انتبهت على صوت أخي ينهرني أن السمكة ستقطع الخيط وأنني أشدها بعنف و غباء، أرخيت الخيط ومنحت السمكة فرصة للإحساس أنها أصبحت حرة، خرجت إلى براح البحر الواسع، تركتها تطمئن أنها تسيطر على الموقف، ثم توقفت عن منحها المزيد من الخيط ونصبت البوصة لأعلى ، بدأت تنهار وأنا ألف الخيط على البكرة والسمكة لم تطفو بعد، والعيون مأسورة تبحلق في الماء . السمكة طفحت، ظهرت على وجه الماء وأخذت تضرب بذيلها ورأسها في آخر محاولة للخلاص من سلاح السنارة الذى سفك دماءها . رفعت البوصة لأعلى وشبحت وجه السمكة عن صفحة الماء لقطع أنفاسها الأخيرة في لحظة قتل عديمة الأحاسيس !

صرخت في الصيادين ، هل معكم (جلب) رد الجميع لا يوجد .

لغت انتباهي وقوف رضا صديقي على شفة الماء، استأذنته أن يجلب السمكة لي بيديه ، ترك بوصته على الحجر ثم جثا على ركبتيه لكنه لم يفلح في التقاطها ، كرر المحاولة ففشل نام على بطنه ومد يده فأفلتت السمكة .

حاول امساكها من الخيط فنهرته برفق، لا تمسكها من الخيط، تحير للحظة ثم قرر ادخال يده في فم السمكة، قال أخي ستقطع أصابعه طمأنته لا تخف القاروس سمك أهتم ليس له أسنان وليس في حلقه لسان !

تمكن رضا من ادخال راحة يده وطبق عليها بالإبهام بكل قوة فأفلتت السنارة من اللحم وتأرجحت تلمع في الهواء !

سقط قلبي بين قدمي وتقافز فوق الأحجار كالكرة ثم استقر بين ضلوعي ، الحمد لله، نصف دقيقة فقط كانت كفيلة بضياع سمكتي .

شفاه القاروس رقيقة تتمزق وتتسع فيخرج السلاح من اللحم، نزل أخي على الأحجار المائلة بحرص، الطحالب الناعمة الوليدة فوق الحجر تتسبب في سقوط أمهر الصيادين

والإصابات تكاد تكون قاتلة !

صابر أخذ السمكة من رضا، أدخل اصبعين في الخياشيم ، واستمات بيده عليها، ثم صعد الأحجار الخرسانية الخطيرة، لو أفلتت قدمه ستتحول الفرحة إلى مأساة.

أخذت السمكة من يده بنفس الحرص، وأنا أحذره لا تتركها الآن، الفرحة عارمة سرت في دمائنا، ما شاء الله، اللهم لك الحمد . فتحنا (المرجونة) لم نجد (الزكيبة) بداخلها !

يا الله هذه مصيبة !

سألنا أصحابنا عن زكيبة فائضة، فلم نجد ، فكرت في حل يخرجنا من الورطة ، تذكرت الأستيك الذى نربط به العدة على كرسي الموتوسيكل نزل صابر بسرعة وأحضره لي .

أدخلت الخطاف الأول في فم السمكة وأخرجته من خياشيمها وشبكت الخطافين في المرجونة وأغلقتها بإحكام ونحن في قمة القلق أن تنتفض السمكة وتسقط في البحر.

رميت رمية جديدة، واصطدت دنيسة بحجم الكف، ولم تظهر أسماك بعدها، قلت لأخي: بارك الله فيما رزق، وانطلقنا بالمكنة الصيني والساعة تخطت الثامنة وأنا أحدث نفسي:

أبي سيفرح جدا، يعشق صيادية القاروس، كان يفرح فرحتين يوم قبض المعاش ويوم استلام التموين، عندما أصبحنا في منتصف الطريق وتجاوزنا كوبري رأس البر، انثقبت العجلة الخلفية، نزلت و أخذت المرجونة والعدة والجردل وركبت سرفيس رأس

البر دمياط ، وركب أخي على تنك بنزين الموتوسيكل وانطلق، المعدية تعمل يا ترى ؟ بادرني السائق تسهر للصباح لنقل العائدين من المصيف، انتظرت المركب مر أخي أمامي يركب فوق أول التنك والعجلة مثقوبة والموتوسيكل يهتز ويتمايل، قلبي امتلأ بالقلق على أخي ، عبرت في المعدية، ودمياط في صباح جمعة رمضان هدوء رهيب، كأن الناس هلكوا مرة واحدة !

دخلت المطبخ وضعت السمكة في الحوض . وغسلتها جيدا، دخلت إلى أبي في السرير ، أبي . .أبي . .انتبه وهو خفيف النوم جدا ، انظر ربنا رزقنا بقاروسة .

كان يقول كلما اصطدت قاروسة كبيرة والذي خلقك وسواك أنت كنت ترضع من هذا .

ابتسم وقال: ما شاء الله ثم سألني كم الساعة ؟ أخبرته : التاسعة .

سألني عن أخي فقلت له يلحم العجلة، ثم عاد إلى النوم المتوتر، فهو يحب الذهاب إلى صلاة الجمعة مبكرا، حيث يحتفي المصلون العجائز بمن يدخل المسجد مبكرا بتوزيع كرملة . سمعت صوت الموتوسيكل فذهب هلعي خرجت إلى البلكونة وسألته لحمتها ، قال : نعم،

قلت له : طيب سلسل المكنة واصعد .

التقطنا عدة صور مع السمكة ثم وضعتها في الثلاجة، تركت ورقة على طرابيزة السفرة .

(توجد قاروسة في الثلاجة صيادية إن شاء الله)

الرحلة

الجمعة يوم مقدس .

كل هواة صيد السنارة من صباح الخميس في حالة استعداد واستنفار، منهم من يسرع في الحصول على ربع جمبري حي بالغلا والكوى، ومنهم من قام بحجز طلبات دود إسماعيلاوي منذ الأربعاء، عند "ياسر " أو " حسن الاعرج" أو الأستاذ "ماهر" .

"حمدي" هو ملك الجمبري الحي الممتاز، والمحل قبل اللاسلكي أشهر من -نار على علم- على رأي تماضر الخنساء. اتفقنا نحن الأربعة إننا نطلع طلعة الحاجز الغربي، عم "ابراهيم زراع" وأنا و "كابوريا" في عربية "يوسف شتا" الصغيرة ذات الباب الواحد.

شركة "سيجاز" استولت على كل الأرض الواسعة على طريق الميناء أمام فرق الأمن، وطردت البدو، وكنا نشق طريقنا للحاجز من بين الخيام.

مشينا بالسيارة الصغيرة ببطء نبحث عن "المدق" الذى سندخل منه إلى الحاجز، واختلط علينا الأمر عزبة خمسة وإلا عزبة ستة؟ ثم قلنا مش هنقع البحر ودخلنا المدق.

الطريق زراعي ، ترعة على اليمين وأشجار مانجا وجوافة على اليسار، ضيق الطريق ووعورته وظلام الليل قبل الفجر بدقائق أشعرنا برعب وقلق، ولكن ظللنا على العزم ، طيلة الطريق نستمع بمتعة لحكايات عم ابراهيم عن الخير والوفرة لسمك الدنيس في "المجرى " – قنال الميناء – وكيف كان يصطاد كل يوم "شكارة" دنيس كفافي وفوق الكف .

ألهب خيالنا بحكاياته عن الدرفيل والعوم وعبور القنال و" البكلويز الحر" الذي كان يملأ رمل قنال ميناء دمياط، وفجأة خطفت أرواحنا عواء كلاب كثيرة قطعت علينا الطريق، فأوقف يوسف السيارة ونحن لا نعلم أين وصلنا ، ثم لاحظنا أننا أمام زريبة مواشي ، بدأنا التراجع للخلف فقفز كلب ألماني وصعد

على وش العربية ، وأخذ يشخر ويزمجر وأصابنا الفزع من ضربات كلب آخر بكف يده على زجاج السيارة كأنه بني آدم ! ! بهدوء المحاربين ، بدأ عم ابراهيم يقود المعركة، ويوجه يوسف ماذا يفعل، أمرنا بالصمت التام وعدم الحركة، وبدأ يوسف ينسحب ببطء، كان عم ابراهيم أحد أسرى أكتوبر في الثغرة، وحكى لنا عن الحفرة التي أنزلهم فيها اليهود، واستعدوا لإعدام العساكر المصريين ، وكيف أنه مد اصبعه ونطق الشهادتين ، وأوشك على لقاء الموت، لولا صرخات جندي إسرائيلي كانت سبب انقاذهم، حيث جاءت أوامر أن مصر أسرت يهود كثيرين ، وإسرائيل بحاجة لأسرى للتبادل.

ظلت الكلاب تطاردنا حتى ابتعدنا جدا عن الزريبة، ولا أدري هل تبول أحد منا بعض قطرات ماء من " الخضة " أم لا !؟

خرجنا إلى الطريق الرئيسي بأعجوبة، وانقلبت دراما الرعب إلى مسخرة، وكابوريا يصرخ: جاموستي يا عمدة انا جايبها لك عوشر، وأنا أرد عليه: خوشي ، خوشي خوديها هيا وابنها . ونحن نضحك ولا نعرف كيف سندخل الى الحاجز الغربي ، لأن النهار طلع والاصطباحة هتروح، وجايبين طعم وجمبري وأكل وسجاير و " فولنا العربية" .

فجأة لمح يوسف سقف سيارة في وسط الترعة، فوقفنا على جنب، ونزلنا لبدء معركة جديدة مع الدنيا .

كش وزير

قمت ملهوفا تاركا الوزير مزنوقا بين الفيل والحصان وهرولت حتى وقفت تحت البلكونة، نعم يا أمي ؟ قالت بصوت منخفض ووجه مطمئن مضيء كالقمر أبوك لم يرجع بعد، نظرت في هاتفي ال أريكسون فوجدتها العاشرة والنصف، أخذت أخي معي وانطلقنا فوجدنا محل أخشاب الحاج محمد الخضري مغلقا وسألنا زبائن مقهى الجلاد عن أبي وزميله السيد الحوت فأخبرني القهوجي أنه لم

يرهما من العصر، – لو كنا اشترينا لأبيك محمولا لكنا عرفنا أين هو الآن ، رد أخي بعصبية – وما ذنبي في هذا ؟ هل منعتك ؟ أخذنا نتلاسن ونحن نعود إلى الحارة، وكل واحد منا يمشي بعيدا عن الآخر عدة أمتار، صعدت سلم البيت كالبرق، سألت أمي ألم يرجع بعد ، أجابت لا فطمأنتها أنه في الكفر ولن يتأخر أكثر، وهربت بعيني من عين أمي ! !، نزلت السلم بسرعة وصوت الشبشب يحدث طرقعة عجيبة، سألني أخي لم يرجع بعد ؟ قلت لا . وقفنا أمام مقهى الحي حائرين نسأل هل رأى أحد أبي ؟ انتقل التوتر إلى الجميع والتف حولنا كل رواد المقهى ، ونحن عاجزين عن التفكير أو اتخاذ خطوة ، – ربما ذهبوا إلى دمياط الجديدة والمسافة طويلة، قاطعت القائل لم يرهما

أحد من العصر . اتسعت دائرة القلق وترك لاعبو الدومينو قطعهم الرنانة واحتشد الجميع حولنا ، بدأنا في توزيع أنفسنا إلى فرق بحث ، البندر، المركز، بيت الحوت، المستشفى . الكآبة ظللت وجهي تذكرت عم سعد ، أصابته نوبة سكر فوق كوبري دمياط العلوي ومقود الحصان في يده، سقط تحت عجلات مقطورة ساوت لحمه وعظامه بالأسفلت، يومها جمع المسعفون بقايا جسده بسكاكين المعجون . لفت التجمع الكبير أمام المقهى أنظار الناس كلها وتزايدت الأعداد، توقف شاب بفيسبا سأل مستشرفا ما الأمر ؟، عاجلته أبي والسيد الحوت لم يرجعا حتى الآن، شهق الشاب أنا رأيتهما يجلسان على الرصيف أمام مجلس المدينة عند المرافق، هممنا بالانطلاق إليهما ، تطوع صديقنا أبو محمد وأخبر أخي أن أخته

الكبرى تسكن أمام شقة الضابط وأنها صديقة لزوجته، هززت رأسي ولم يعجبني الكلام. عندما رأيتهما سألت أبي لماذا لم تتركا العربة حتى الصباح ؟ ماذا تفعلان هنا ؟ الساعة تقترب من منتصف الليل ! ! قال الحوت : ربنا يهد الظالم. دخلت مع أخي للضابط ووقفت بجانب الباب في الطرقة ولم أظهر نفسي ، تلعثم أخي وارتبكت الحروف بين شفتيه وقال بصعوبة للعقيد أننا أقرباء جارة زوجته ! ! نهره الضابط وأمره بالانصراف فورا ، خرجنا والشتائم تنهال من لسان أخي على صديقه ولم أسلم من سبابه وغضبه وأخذ يلومني ويقول أين معارفك أين علاقاتك، هل يعجبك هذا الإحراج ! مضى أكثر من عام بعد تركي مهنة الستالايت، وانقطعت صلتي بأشخاص كثيرين ، بحثت في الهاتف ثم تأففت

لعن الله الغباء لقد غيرت رقمي ولا أحد على هذا الهاتف إلاّ الأهل والأصدقاء، حافظت على هدوئي وأخذت أفكر، اتصلت بأحد أصدقائي وحصلت على رقم الباشا الكبير، كنت أرتجف خجلا وأنا أتصل به انتهت الرنة ولم يرد ، ترددت أن أتصل به مرة أخرى ولكن منظر أبي وزميله والقعدة على الرصيف وكسر الخاطر وإصرار أخي على تحرير العربة من الأسر هذه الليلة بأي ثمن، لإفراح الرجلين الكادحين الذين ظلا بدون طعام ولا ماء منذ ساعات طويلة شجعني على تكرار المحاولة، رنّ هاتفي فشعرت بفرحة عارمة فتحت الخط ، مساء الخير معالى الباشا، حكيت له الحكاية، فسأل عن الموجودين في المكتب، قلت: فلان باشا وأمناء

وعساكر، قال مازحا ما أعجب حظك، أغلق، ، سأهاتفك بعد دقائق ، الضابط الذى نهر أخي أراد أن يراني ، دخلت مكتبه وشكرته واعتذرت عن الازعاج الذى سببته له واستأذنته في الانصراف، وأخذت البطاقتين وخرجت، وضع عم السيد الحوت نفسه مكان الحصان وأمسك بعريش العربة الكارو من العامودين المتباعدين وجر العربة وركض بها مثل حصان قوى وأبى يدفعه من الخلف والضحكات تتناثر في حبات العرق التي كست وجه الرجلين وهما يقتحمان وسط البلد وأبى يغنى يا بامية بقرش فضة وعليها قرن شطه يا عوازل فلفلوا .

شهيدة

الذباب لا يسقط في القهوة ، ربما يحب السكر فيسقط في الشاي دائما، غفلت عيني عن فنجاني لحظات، ارتشفت ودارت فوق لساني واقشعر بدني ، بصقتها على البلاط ، و تمضمضت وشربت بقية الكوب، وطوحت البن الباقي على الأرض، دفعني فضول ملح لأتفحص الشهيدة ، فردت أصبعي ولمستها ، كانت صلبة كحجر ، وضعتها

في بطن راحتي وغسلتها ، كانت حصوة من ثمرة بن لم تنطحن .

الناصح

السماعتان في أذنيه، البالطو الأبيض يبرق كضوء لمبة نيون، وضع سماعة الكشف على ظهري وقال خذ نفسا عميقا ، تنفست وزفرت ، نقل السماعة إلى صدري وقال تنفس ، أبعدت فمي عن فمه وأخذت نفسا عميقا وأخرجته، سحب من سيجارته نفسا شرها ، تلذذ بغرابة وهو ينشر الدخان المارلبورو فوق رأسينا ، رفع السماعة وقال لي

بحزن : صدرك تعبان ، لابدّ أن تتوقف عن التدخين !!

شكولاتة

إعجابي ب (مها) وصل إلى حالة جنونية، أنتظرها على النواصي ، أستدير حول المنازل لكي ألتقيها وجها لوجه في الطريق الذي رأيتها تدخله، أجلس أمام باب الصيدلية التي تعمل بها ، أقول لها كل كلام الغرام والحب، أكتب لها خطابات غرامية ملوّنة، أشتري لها الورد والشكولاتة، تطفلت على حياتها كذبابة علق جناحها في قطرة عسل، كنت أستزيد من الهوى وهي تستزيد من النفور والتجاهل والاستهتار، كشف تصرفاتي رجل عجوز ليس في فمه سن واحدة،

لاحظ مكوثي على المقهى أمام باب الصيدلية، ودوام تركيزي مع حركاتها وسكناتها، قال لي يا ولدي لن تصل إليها ، هذه مهرة نافرة، لكن سنجرب.

عملت بالنصائح بعد أن دونتها، وبدأت أمارسها في تصرفاتي معها .

أشتري الورد والشكولاتة لصديقتها السمراء النحيلة المتواضعة الجمال جدا ، وأقول لها في كل لقاء :أنت أجمل من مها يا صباح، أنت رقيقة وغزال وجذابة، سمارك يجنن، مها لا تساوي شيئا بجانب سحرك ورشاقتك وخفة دمك، كتبت لها خطابات غرام على ورق مماثل لخطابات مها، لم يمر سوى أسبوع، مرت (مها) أمام المقهى وأنا أجلس كعادتي في

الصباح، نظرت لي بعينين كالدم، فتحت الباب الصاج، ثم أشارت لي من خلف الباب الزجاجي : تعالى !

قفزت إليها ملهوفا لا أصدق ما يجري، أصبحنا لا ثالث لنا بالمعمل الصغير، هوت أصابعها الناعمة على خدي، جذبتني بعنف، فقدت أحمر شفاهها ثم طردتني إلى الخارج كالمخبولة وهي تنفخ من الغيظ: ليس لك علاقة ب (صباح) بعد الآن .

جنيه ورق

لم يقاوم رائحة الطعمية الساخنة قبيل ظهيرة السبت .

منظر حبات السمسم المنثور فوق الأقراص والرائحة المميزة للباذنجان المقلي فتحت شهيته ، أوقف الفيسبا جانبا على الحمال الحديدي ذي القائمتين، سحب رغيفا ناشفا كالقبة من قفص الخبز الكبير وبأصابع محترفة فلقه نصفين ، فأصبح كطبقين ثم أخذ قطع باذنجان مقلي وأقراص طعمية ساخنة ودفع الحساب للمطعم ، اطمئن أن الفيسبا بأمان وقال لصديقي معاذ خلي بالك

منها واتجه إلى باب ورشتنا، عندما أصبح في الثلث الأول من الورشة الطويلة، نظرت إليه متفحصا، الرغيف على يده اليسرى وقد ألبس النصف الأسفل من الرغيف في النصف المحمر وأقراص الطعمية وقطع الباذنجان واللفت المملح في تجويف الرغيف، كانت هيئته كمسكين يطلب مساعدة، وهو يمضغ وصوت تهشم الطعمية تحت أضراسه تزيدها امتاعا وتثير شهيتي للأكل، وضعت يدى في جيبي وأخرجت الجنيه الذى أملكه، أخذه وقبله ورفعه لرأسه ثم أعاده لشفتيه عدة مرات ودسه في جيبه، كسر من الرغيف لقمة والتهم قطعة باذنجان بعدها وأتبع ذلك بقضمة من قرص طعمية، دب الهلع في قلبي والشاكوش في يدى وأنا أرتعش وأفكر، لو كان مخبولا أو لصا سأدافع عن نفسى بهذا الشاكوش ! !

نظر بتأمل إلى الفوتيه الذي أقوم بتجميعه أوقف المضغ وقال : الله ينور شوف صليب القعدة ! وعاد للمضغ والقضم، تعجبت لمعرفته بأسرار المهنة وتساءلت في نفسي أي نوع من الشحاذين هو ؟اطمأن قلبي وذهب خوفي قليلا، قمت بقياس القاعدة على هيئة حرف إكس الانجليزي بين قوائم الكرسي الأربع، وأنا مهيأ لغرس العصا الخشبية بطول متر في محاشمه اذا هاجمني وأنا أنحني لأخذ القياس ! قال تسلم ايدك انت أسطى صغير ! بتبقض كام ؟

قلت باعتزاز سبعين جنيه ! ثم لمت نفسي أنني أخبرت الشحاذ بأجري الأسبوعي ، نظر إلى صورة السادات على الحائط وترحم عليه وقال بصوت مسموع :حلفاؤك خانوك يا

ريتشر ! كانت صور ناصر والسادات ومبارك مصفوفة أعلى الجدار .

نظرت إليه باستغراب لم يتركني حائرا مرتبكا وهو يلتهم لقيماته وبقايا الرغيف تكاد تبوش من أثر الزيت ، وسألني بحزم : فين الصنايعية قلت :"مسبتين " * قال : عمال فاشلة ومعلم خايب !

الواد حسن فين ؟ اقشعر بدني وقلت بسرعة :نائم ! قال لي : روح انده له قول كلم الحاج أحمد ! قلت مندهشا : أقوله الحاج أحمد إيه ؟ فرد قائلا: عيل لمض ! هو هيعرف ! صعدت سلم البيت وأنا أتمتم الواد حسن . . الواد حسن . . الشحاذ يصف المعلم صاحب الورشة الكبيرة والعمال بالواد حسن ! !

طرقت الباب وأخبرت زوجة المعلم قلت لها :راجل اسمه الحاج أحمد عاوز المعلم في الورشة ، كان قد صفف شعره وتعطر وتهيأ للنزول سألني عن وصف الرجل فأخبرته ولم أجرؤ أن أخبره بحكاية الجنيه الورق ، فلو عرف أنني تصدقت على شحاذ بجنيه سيضربني علقة موت ! رحب المعلم بالحاج وجذب كرسيا وجلس قبالته وسأله تشرب إيه قال: شاي وطلب مني المعلم احضاره من المقهى ، عدت مسرعا وأردت تذويب السكر بالملعقة في الشاي فقال لي لا تقلبه وشربه ماسخا ثم أخذ المعلم وخرجا باتجاه الفيسبا ! أربكني المشهد وأنا أتكهن من يكون هذا الرجل ؟

أخرج شنطة من درج الفيسبا وعادا إلى الورشة .

أعطى المعلم رزمة نقود وأوضح طلباته ، وهو يؤكد بخفة دم معاك عشر بواكي اتجدعن يا أبو علي *، طلب زجاجة ماء ، سقيته، أعطاني مئة جنيه ورقة واحدة جديدة وانصرف والمعلم سار معه حتى الفيسبا .

وضعت المئة جنيه في جيبي وأنا أوشك أن أطير من الفرح .

(مسبّين * اتخذوا السبت إجازة)

(*أبو علي . . كناية تقال لمن أسماؤهم حسن)

عسلامة

في ليلة ممطرة من يناير وصلتني رسالتها الثانية، كتبت لها ردا رقيقا وأنا أشعل سيجارة بعد الأخرى ويغمرني فضول قوي لمعرفة من تكون .

- عسلامة .

- الله يسلمك أنا أشرف .

- أنا شاهندا .

شعرت دمها متناغما مع دمي، كأنني أعرفها وأنا في بطن أمي، ذكاؤها لامع كجوهرة مضيئة، قلت لها: أنت ناطحة سحاب يا شاهندا.

أيام قليلة مضت أدخلتني تحت جلدها تماما، أشاركها كل شيء وألازمها وهي تذهب إلى عملها في الصباح وأعود معها في الخامسة مساء، أنتظرها بحضن حميم كأنني أعيدها إلى بطني، ظللت أتأمل صورتها وأنا أذوب في حلاوة ملامحها، وعينيها العسليتين. قدماها كعاموديين من رخام إغريقي كامل الاستدارة والتناغم، صدرها كيمامتين مطمئنتين نامتا على رمانتين في عشهما، خصرها كعنق زجاجة شمبانيا فاخرة تكاد تحط يديك

على وسطها وتهوي براحتيك على حوضها البديع كثمرة كمثرى، بطنها كاملة الاستدارة، رقبتها كشجرة موز شابة تجذب شفتيك لتفاحة آدم خفية، أذناها كمحارتين صغيرتين تنقل وشوشة البحر وأسراره عبر لساني إلى أعماق روحي، حلاوة صوتها نغم رائق حنون أذاب روحي، أدمنت الاستماع إليها وهي تغني لي (مجنوني عيشني ساعة بقلبك، اشتقت لك أد البحر أد الصحارى والمطر).

تخاف أن أتزوج عليها حتى لو فرق الموت بيننا وصرت أرمل. حاولت إقناعها بمجيئها إلى مصر وتتزوج لكن كان في رقبتها أرواح.

في الصباح الباكر أستيقظ ملهوفا، فارق الزمن بيننا ساعة واحدة، بيتنا البسيط غرفة وحيدة على واتس آب، الحب في الصباح له رائحة الورد ومذاق التوت ،

أدخلها بين أضلاعي وأصفف شعرها بيدي، أخبئها عن العالم لتسترخي آمنة في حجري، أنيقة جدا، قميص وبنطلون تبدو لي أشيك فتاة في العالم، عندما تمشي بسرعة أتوهم أن ياسمينة تعبر الطريق وعندما تسير لي وحدي ببطء تسقط اللمبات من السقف وتنبت للحوائط ألسنة وللأبواب أصابع غليظة !

لليال وأيام طويلة ظلت تنتظر وأنا مشغول عنها ، لكنها كانت صبورة، لم تكن تملك لسانا بين شفتيها، حتى عندما أستفزها لم

تكن ترد بتسرع وتبحث ببراعة عن عبارات لا تستفز رجولتي ، لا تأكل كما تأكل حواء فهي أشبه بالفراشة لا أظن أنها أكلت شيئا أكبر من تفاحة.

بعد شهرين ونصف قلت لها زوجتك نفسي وقالت لي، وأشهدنا الله !

علمتني كلمات لا ينبغي أن أنساها ليلة عرسنا، تقول وأردد وراءها، (شاهندا يا بنت الناس أنا الحيط وانت الخيط وهي ترد أشرف يا ولد الناس انت الخيط وانا الحيط)ثم أشكها فوق ركبتها سبع شكات بإبرة حادة وأسيل دمها .

أستحم بماء الورد والزئبق وأكتب اسمي واسمها بالمسك والزعفران، تنبت في ظهري أجنحة، أطير إليها في

الشفق ، أحمل لها الورد ، عندما تفتح لي أقبلها ، أتشممها تسري رائحة عرقها البديع في شراييني ، ألف ذراعي حول خصرها وأعانقها حتى تتشابك الضلوع (توحشتك بارشا)

أضمها بحنان وأستحوذ عليها وأدخلها تحت أعصابي وبين عظامي ، أنظر في عينيها فلا أرى الحدقتين ، وحده البياض وهي غائبة في ملكوت بعيد ، يدق قلبها بقوة، تضغط بأصابعها على يدي فأضع شفتي على أذنها وأهمس بكلمة واحدة (لا تخافي)

أتأمل تفاصيلها البديعة ولون بشرتها النضرة البيضاء كقلب حبة قمح، ترقص لي متحررة من قيود العالم، توقظ أعصابي النائمة فتصبح كل شعرة في جسدي خنجرا . أذوب مثل قطعة

زبدة في مقلاة عندما تتمشي أمامي وهي ترفع شعرها بيديها على رأسها ، ساعات طويلة تمضي وينسلخ النهار من الليل ، أعدها وعدا كالنذر سأجيء غدا .

تقول أنها تخاف أن نفترق، وأن الشيء الوحيد الجميل في الحياة غرامنا ، وأنها لا تحتمل أن أضيع منها ، وتسألني لو يمكنني أن أبقى ولا أتركها، كانت تخاف أن تفقدني وتخاف أن أخونها وتخاف أن أتزوج عليها ، أقسم لها أنني لن أتسبب في شيء من ذلك، وأنها ستسامحني إذا مِتُّ دون أن أخبرها مسبقا لتجد وقتا مناسبا لشراء فستان أسود يتناسق مع تفاصيلها البديعة ودموع

كافية للبكاء بين زميلاتها في العمل، تضع يدها على شفتي وتقول: (اسكت يا مجرم، أنا هكا، ربى يهزني)

أعصرها في صدري، يختلط ريق عذب وريق مالح ثم أفرد أجنحتي عبر النافذة وأطير.

أحلام

كنت أجلس على حافة السرير، مستغرقا في توليف القنوات، ولا أشغل نفسي بأهل المنزل المجتمعين في الصالة، شعرت بعين آدمية تتسكع على وجهي ! انحرفت ببصري قليلا عن شاشة التليفزيون، وجدتها سائحة تماما في ملامح وجهي، عيناها تلمعان ببريق مضيء، شفتاها مفتوحتان مبتلتان باللعاب الدافق، صدرها الصغير منتصب يكاد يفتق حمالة الصدر، وقعت عيني في عينها تماما لكنها لا

تراني كانت في دنيا ثانية. أعدت وجهي إلى التليفزيون، عندما شرخ الهدوء صوت جدتها –بت يا أحلام دخلي الشاي للباش مهندس يابت – ردت على الفور : حاضر يا نينا. فتحت زرارين من قميصها، ودخلت بصينية الشاي تتمايل ، وقفت أمامي وانحنت بدلال امرأة في الثلاثين، اتفضل الشاي، لون بشرة صدرها المنعتق من فتحة القميص كان بديعا بين السمار والبياض، مددت يدي لأخذ الكوب وافتضح أمري، فأنا كلي يرتعش، واندلقت قطرات كثيرة من حافة الكوب على يدي، وأنا أتحامل لأخفي ما جرى لي، قلت لها : شكرا . فقالت : أنا أحلام فقلت شكرا يا أحلام. ووقعت عيني في عينها .عادت وجلست مكانها، وانقلب الحال،

صرت أنا من تلمع عيناه وابتلت شفتاه، شربت شفطة بعد شفطة وأنا وهي نتبادل نظرات عشاق قدامي ، بالرغم من أنني لم أرها إلا الليلة. عندما جاءتني بالقهوة المضبوط كانت انفعالاتنا في أوج توهجها، وأنا أعاني الكبت والاحتشام وأعصابي متوترة ومشدودة لآخر وريد . وأنا أقبض أجرتي من الزبون، لم أجدها في الصالة، نزلت سلالم العمارة بحذر، كانت ابتسامتي تضيء العتمة، وأنا سارح بكل ذرات كياني في أحلام، ذهبت بأحلامي بعيدا فعانقتها وحملتها بين ذراعي ، يا لها من غزالة لا تزيد عن أربعين كيلو أبدا، كنت أعض على شفتي و أنزل ببطء، أفزعني التحام جسم طري ضئيل بحضني ، وأنفاس شفاه ساخنة، وضعت قبلة على فم معدتي تماما .

السباك

دخل عاطف السباك الشاب الفارع الأعزب ابن الخامسة والعشرين المسجد لاهثا ليلحق بصلاة المغرب جماعة، عندما أكمل الوضوء كان الإمام في التسليم الأخير، في صمت وكعادة المساجد تجمع المتأخرون وشكلوا صفا للصلاة كجماعة ثانية ، كانت لحيته وهيئته خادعة، شاب طويل ضخم بسكسوكة منمقة ، دفعوه ليؤم الصلاة بهم، وتوهموا أنه من أهل العلم والقرآن ، رفع يديه عاليا – الله أكبر – وبدأ في تلاوة الفاتحة، أفزعه صوت المأمومين من خلفه آمين !

كانت أمنية حياته أن يعيش هذه اللحظة ذات يوم، ويقف إماما بالناس في صلاة جهرية، يرفع صوته بالقرآن ويتلوه بخشوع وصوت جميل، صوت أجش قارع يسقط المصابيح من الأسقف العالية.

في الصف المحدود العدد وقف وراءه في الصلاة، صناع ماهرون نجارون وحفارون على الخشب وسائقو سيارات أجرة وبائعو بقالة، بدأ في تلاوة آيات من سورة يوسف وانعقد لسانه عند (غيابة الجب) ظل يكررها مستنجدا أن يلقنه أحد المصلين خلفه بقية الآيات، لكن لم ينطق أحد، كان أغلب المصلين الآخرين في المسجد

يصلون ركعتي السنة ، ظل يقول (غيابة الجب) . . . (غيابة الجب) ولما تمكن منه اليأس قال: ((المهم . . يوسف تاه ولقيناه))

الله أكبر . . . ثم ركع ! !

انفجر المسجد كله في الضحكات الهستيرية وخرجت مجموعة من الصلاة وانهالت عليه بالضرب، كان قويا وفارعا دفعهم بيديه فأسقطهم على الأرض وفر هاربا حافيا تاركا حذاءه، ارتدى بعض الشباب أحذيتهم وركضوا وراءه، وكلما عبروا شارعا تزايدت أعداد الناس الراكضين خلف السباك ، كأن المدينة كلها تجري وراءه، وكلما سأل واحد منهم جاره في الجري ماذا فعل هذا الشاب ؟

يرد عليه بثقة وهو يلهث لا أعلم ! !

مشهد عجيب يشبه هروب الممثل عادل امام من الشرطة في احد أفلامه ولكي يصنع بلبلة ويفلت من المطاردة أطلق شائعة مدوية (فيه فراخ في الجمعية) وتبعه الناس بالمئات حتى تزاحموا أمام الجمعية التي كانت ابوابها مغلقة لأن اليوم كان إجازة الجمعة ! !

ظلت الجموع الغفيرة تجري وراء السباك نصف ساعة كاملة حتى عبروا ميدان سرور بوسط البلد، شعر السباك بالإعياء وأحس أنه سيسقط على الأرض، وجد مبنى الكنيسة هائلا وشامخا أمام عينيه، كان يسبق اللاحقين به بخمسين مترا طيلة السباق العجيب، بدون تفكير انطلق مندفعا ودخل الكنيسة ، وفي لحظة انتباه الحارس لما حدث

كان الصياح يتعالى والجموع تقترب من الكنيسة، دخل الحارس هو الآخر إلى الكنيسة و أغلق البوابة بإحكام.

وقفت الحشود أمام البوابة وبدأت الاستفسارات ماذا فعل ؟

وعندما انتشرت المعلومة بما حدث في المسجد انفجرت الجموع في الضحك، وشباب كثيرون شتموا وسبوا ولعنوا، ومع سماع أول اشاعة أن الشرطة في الطريق تفرقت الجموع كأن الأرض ابتلعتهم.

رجل واحد فقط ظل ينتظر خروج السباك حتى ساعة متأخرة من الليل ولكنه لم يخرج .

رنين

قال الطبيب : اخلع ثيابك وأشار !

خلعت بنطلوني وقميصي وارتديت جلبابا جديدا لم ألبسه من قبل، أخذته معي ، نمت على جهاز الأشعة، نومة الموتى المنقلبين ، على ظهري ووجهي للسقف، قام الطبيب والطبيبة بربطي بالأحزمة، أوثقوا دماغي ، تحرك جهاز الأشعة بالرنين وأصبح فوق رأسي ، قال الطبيب بعد توثيقي جيدا: ستظل ربع ساعة ، تنفس ببطء، لا تحرك أصبعا ،

كن هادئا ساكنا، وتركني وأغلق الباب، توهمت أنني أجلس بين ملكين .

كل خطاياي مشت أمام عيني واحدة . . واحدة كقطيع من الخراف بكل الألوان، ومعزات تتقطعن في مشيتهن وتخرجن لي الألسن وتتغامزن !

ظللت أقول أستغفر الله العظيم . . أستغفر الله العظيم .

الأصوات التي تصدر عن جهاز الأشعة لم تشغلني عن الحساب ورعب الوقوف بين يديه .

كنت خجلان . . خجلان . . خجلان . . . أردت صرف عيني عن وجه ربي لكن كان وجه الله في كل مكان من غرفة الأشعة .